تمهيد

الحياة السياسية، والاجتماعية، والفكرية في عهدي الدولتين: الزَّنكية والأيّوبيّة في مصر والشام

obeikandl.com

obeikandl.com

الحياة السياسية

أ- قبل قيام الدولة الزّنكية:

كانت عوامل الضعف والاضطراب تعم الدولتين العباسية والفاطمية في نهاية القرن الخامس، وبداية القرن السادس للهجرة/ نهاية القرن الحادي عشر، وبداية الثاني عشر للميلاد.

ومن أهم هذه العوامل: تفكك المسلمين وتخاصم حكامهم، ومؤامرات الباطنية، فقد كانت الدولة العباسية في شيخوختها في عهدي الخليفتين المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ - ١١١٨م)[١]، والمسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩هـ/ ١١١٨ - ١١٣٥م)[٢]، وسلطة الخليفة لا تتجاوز بغداد والبلاد القريبة من الشام، بل لم تكن للخليفة من مظاهر السلطة سوى السلطة الدينية، وكانت السلطة الفعلية في أيدي السلاطين السلاجقة.

امّا السلاجقة فقد أخذت سلطتهم في الانهيار بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)[٣] ومقتل وزيره العظيم نظام الملك[٤]، على أيدي الباطنية في السنة ذاتها[٥]، إذ اشتعلت بينهم - في سبيل السلطة - نيران

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج٨: ص٤٩٣-٤٩٤، ج٩: ص١٧٣-١٧٤.

(٢) المصدر السابق ج٩: ص ١٧٤-١٧٥، ٢٨١-٢٨٤.

(٣) ملكشاه: هو أبو الفتح جلال الدين ملكشاه، ولد بأصبهان سنة (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م)، وتوفي ببغداد، وقد تولى السلطنة بعد وفاة أبيه ألب أرسلان سنة (٤٦٥هـ/ ١٠٦٢م) ووصلت الدولة السلجوقية في عصره إلى أوج ازدهارها (أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق١: ص٦٤-٦٥).

(٤) وزر نظام الملك أبوعلي الحسن بن إسحق الطوسي للسلطان ألب أرسلان ولولده ملكشاه أربعا وثلاثين سنة، وهو من أعظم وزراء السلاجقة، قتله أحد الباطنية قرب نهاوند سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م). (ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق: ص١٢١).

(٥) أبوشامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق١: ص٦٢-٦٤، وابن الأثير: الكامل: ج٨: ص٤٧٨-٤٨٤.

الحـروب والمنازعـات[١]، كمـا امتلأ تاريخ هذه الحقبة باقتتال أمراء الولايات، وعدوان بعضهم على بعض في سبيل توسيع رقع ولاياتهم.

واستمر الخلاف والاقتتال بينهم حتى بعد مداهمة الصليبين لهم، فضلا عن الحروب الخارجية التي قامت بينهم وبين الممالك المجاورة كحروبهم مع الفاطميين[٢]، والصليبيين[٣].

أمّا الدولة الفاطمية فكانت أحوالها مضطربة، إذ كان معظم خلفائها يتولون الحكم صغارا، ولا يملكون من الأمر شيئا، وكان الوزراء والقادة يتصرفون في شؤون دولتهم[٤]، كما كان العداء مستحكما بين هذه الدولة الشيعية في مصر، وبين الحكام السنيين في بلاد الشام، والحروب بينهما متصلة[٥].

وأمّا الباطنية فقد عظم خطرهم، وقويت شوكتهم – بعد موت ملكشاه، ومقتل وزيره نظام الملك – فاغتالوا عددا من الوزراء والأمراء، إذ فتك ثلاثة منهم بجناح الدولة حسين أتابك حمص مع جماعة من أصحابه سنة (٤٩٦هـ/١١٠٣م)، ووثب اثنان منهم سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣١م) على تاج الملوك بوري صاحب دمشق (٥٢٦-هـ/١١٣٢م)، وجرحاه عدة جراحات[٦].

ولم يقف الأمر عند سوء الأحوال الداخلية، بل ازدادت الأحوال سوءاً باندلاع

---

(١) العماد الكاتب: تاريخ دولة آل سلجوق: ص٧٦-٨٠. (اختصار الفتح بن علي البنداري)، وابن الأثير: الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل: ص٦-٨، ٢٢-٢٣.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق: ص ١٣٣-١٤٠ وغيرها.
وابن الأثير: الكامل: ج٩: ص ٢٦-٢٨، ٣١-٣٥ وغيرها.

(٣) ابن الأثير: الكامل: ج٨: ص٤٦٠، ٤٨٩، ج٩: ص١٣ - ١٦، ١٩ - ٢١، ٢٩، ٤٣، ٥٦، ٦٧-٦٨، ٧٠، ٧٢-٧٤ وغيرها.

(٤) انظر أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٦ - ١٠، ١٨ - ٣٢ وغيرها، وابن الأثير: الكامل: ج٩: ص٣٩٤-٣٩٦.

(٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق: ص١٣٥.

(٦) المصدر السابق: ص١٤٢، ٢٣٠.

الحروب الصليبية، إذ ابتدأت هذه الحروب سنة (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م)، فتدفقت جموع الفرنج نحو بلاد الشام، وتمكنت الحملة الصليبية الأولى من هزيمة السلاجقة، ثم الاستيلاء على مدينة الرّها[١] سنة (٤٩١هـ/ ١٠٩٨م)، حيث كون الصليبيون إمارتهم الأولى فيها، ثم سقطت أنطاكية[٢] ومعرة النعمان [٣] في أيديهم، ففتكوا بأهليهما فتكا ذريعا[٤]، وبعد ذلك تابعوا زحفهم جنوبا فحاصروا القدس نيفا وأربعين يوما ثم استولوا عليها سنة (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م)، وأحدثوا فيها مذبحة رهيبة[٥]، قدر فيها قتلى المسلمين بسبعين ألفا[٦].

وتوالت – بعد ذلك – هزائم المسلمين أمام الجيوش الصليبية، وكان من نتائجها أن استولى الصليبيون على معظم المدن الساحلية[٧] إضافة إلى مدن أخرى، وقد أقام هؤلاء الغزاة أربع إمارات لهم في البلاد التي استولوا عليها، وهي إمارة الرّها (٤٩١ – ٥٣٩ / ١٠٩٨ – ١١٤٤م)[٨]، وإمارة أنطاكية (٤٩١ – ٦٦٦هـ/ ١٠٩٨ – ١٢٦٨م)، ومملكة بيت المقدس (٤٩٢ – ٥٨٣هـ/ ١٠٩٩ – ١١٨٧م)، وإمارة طرابلس (٥٠٣ – ٦٨٨هـ/ ١١٠٩ – ١٢٨٩)م[٩]، وتحكموا

---

(١) الرّها (أو الرّهاء): مدينة كبيرة مشهورة بين الموصل والشام (ياقوت: معجم البلدان: ج٣: ص١٠٦–١٠٧) .

(٢) أنطاكية: مدينة مشهورة غربي حلب، تقع الآن ضمن الأراضي التركية (ياقوت: معجم البلدان: ج١: ص٢٦٦ – ٢٧٠).

(٣) معرة النعمان: مدينة في شمال سوريا بين حلب وحماة (ياقوت: معجم البلدان: ج٥: ص١٥٦).

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق: ص١٣٥ – ١٣٦، وابن الأثير: الكامل: ج٩: ص١٣ – ١٦، والمؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة: ترجمة حسن حبشي: ص ١٠٦ .

(٥) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق: ص١٣٦ – ١٣٧، والمؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة: ص١١٩ – ١٢٠، وباركر: الحروب الصليبية: ترجمة السيد الباز العريني: ص٣٦ .

(٦) ابن الأثير: الكامل: ج٩: ص١٩–٢١ .

(٧) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق: ص ١٢٣–١٤٢، ٢١١ وغيرها.

(٨) سعيد عاشور: الحركة الصليبية: ج١: ص١٧٣ – ١٨١، وستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية: المجلد الاول: الحرب الأولى وقيام مملكة بيت المقدس: ترجمة السيد الباز العريني: ص٤٤٥–٤٦١ .

(٩) سعيد عاشور: الحركة الصليبية: ج١: ص٣٧٠ – ٣٧٧، ٢٣١، ٢٧٩ – ٢٨٨، ٣٥٦ – ٣٦٧ .

بمنافذ بلاد الشام إلى الغرب، ثم وصلت المملكة الصليبية إلى أوج قوتها، وخضع لها جانب كبير من بلاد الشام، وأعالي الجزيرة الفراتية، وامتدت غارات الصليبيين من ماردين[١] وآمد[٢] في ديار بكر[٣] شمالا إلى العريش[٤] جنوبا[٥] إلاّ أنَّ مدناً شامية كبيرة بقيت في أيدي المسلمين، ومنها حلب وحماة وحمص ودمشق[٦] وبقي الحال على هذه الصورة حتى قامت الدولة الزَّنكية.

ب- الدولة الزَّنكية:

كان آق سنقر والد عماد الدين زَنكي[٧] أوّل من ظهر من هذه الأسرة على الساحة السياسية، وتنتسب هذه الأسرة إلى قبائل الساب يو التركمانية، وكان في بدء أمره مملوكا للسلطان السلجوقي ألب أرسلان (- ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)، فربي مع ابنه ملكشاه، ولما اعتلى ملكشاه عرش السلطنة قربه إليه، وأعطاه حجابته[٨] وأطلق عليه لقب قسيم الدولة، ثم ولاه مدينة حلب وأعمالها[٩]، فظهرت كفاءته وهيبته[١٠]، ثم ضم حمص وأفامية[١١] وغيرهما إلى إمارته[١٢].

---

(١) ماردين: بلدة مشهورة مبنية على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين (ياقوت: معجم البلدان: ج٥: ص٣٩).

(٢) آمد: أكبر مدن ديار بكر، وهي مدينة قديمة حصينة تقع على ضفة نهر دجلة الذي يحيط بأكثرها كالهلال، وفيها بساتين كثيرة (ياقوت: معجم البلدان: ج١: ص٥٦-٥٧).

(٣) ديار بكر بلاد واسعة في شمال العراق وتنسب إلى بكر بن وائل بن عدنان. (ياقوت: معجم البلدان: ج٢: ص٤٩٤).

(٤) العريش: أول مدن مصر من ناحية الشام، تقع على ساحل البحر المتوسط (ياقوت: معجم البلدان: ج٤: ص١١٣).

(٥) أبو شامة: الروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص٧٦، وابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٣٢.

(٦) السيد الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى: ج١ (الأيوبيون): ص١٥.

(٧) زَنكي: تعريب زَنك، وهو الشاطر: (آدى شير: معجم الألفاظ الفارسية المعربة: ص٨١).

(٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج١: ص٢٤١.

(٩) أبو شامة: الروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص٥٩، وابن واصل: مفرج الكروب: ج١: ص١٩.

(١٠) أبو شامة المقدسي: الروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص٦١.

(١١) أفامية: أو (فامية) وهي مدينة حصينة على ساحل بلاد الشام قرب حمص (ياقوت: معجم البلدا: ج١: ص٢٢٧).

(١٢) أبوشامة المقدسي: الروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص٦٢، وابن الأثير: الكامل: ج٩: ص٣٠١، ٣١٠-٣١١.

وبعد وفاة السلطان ملكشاه، شب النزاع بين ولده ركن الدين بَرْكيارُوق (-٤٩٨هـ/ ١١٠٤م) وبين أخيه تاج الدولة تُتُش صاحب دمشق (-٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) وانحاز آق سنقر إلى ابن سيده بَرْكيارُوق، فوقع أسيرا في قبضة تتش الذي أمر بقتله سنة (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)[١].

عماد الدين زَنْكي:

لم يخلف آق سُنْقُر بعد مقتله سوى ولده عماد الدين الذي كان - آنذاك - في العاشرة من عمره، فضم إليه بَرْكيارُوق مماليك أبيه، وجعله في حاشية والي الموصل[٢]، وعندما شب ولي مدينتي واسط والبصرة[٣]، ثم تركهما والتحق بخدمة السلطان محمود (-٥٢٥هـ/ ١١٣١م) وأصبح أثيرا لديه، فولاه الموصل والجزيرة سنة (٥٢١هـ/ ١١٢٦م)[٤]، وبعث معه ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه وجعله أتابكهما[٥].

وقد عكف عماد الدين على تنظيم إمارته الجديدة وتقويتها، وشارك في الصراعات الناشبة حول السلطنة[٦]، ثم شرع في توحيد الإمارات المجاورة تحت لوائه، فضم إليه جزيرة ابن عمر[٧]، ونصّيبين[٨] وحرّان[٩] وحلب[١٠].

أمّا على الجبهة الصليبية فكان «الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ج٨: ص٤٩٤-٤٩٦، ٥٠٢-٥٠٣.

(٢) أبو شامة المقدسي: الروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص٦٧.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب: ج١: ص٢٩-٣٠.

(٤) أبو شامة: الروضتين: حلمي: ج١: ق١ ص٧٣-٧٦.

(٥) الأتابك: لفظ معناه: الوليد الأمير، أو أبو الأمراء (القلقشندي: صبح الأعشى: ج٤: ص١٨)، أو مربي الملك (سعيد عاشور: الحركة الصليبية: ج١: ص١١٢).

(٦) أبو شامة: الروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص٧٩-٨٠.

(٧) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل من ديار بكر (ياقوت: معجم البلدان: ج٢: ص١٣٨).

(٨) نصيبين: مدينة في العراق قرب سنجار (ياقوت: معجم البلدان: ج٥: ص٢٢٨).

(٩) حران: مدينة مشهورة في جزيرة آقور تقع بين الرها والرقة (ياقوت: معجم البلدان: ج٢: ص٢٣٥).

(١٠) أبو شامة: الروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص٧٧-٧٩، وابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٣٧-٣٨.

أجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وتضاعفت سطوتهم، وعلا شرهم، واشتد بطشهم، وامتدت إلى بلاد الإسلام أيديهم، وضعف أهلها عن كف عاديتهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب»[١]، فقاد عماد الدين الجهاد ضدهم، وبدأ بمهاجمتهم، فحاصر قلعة الأثارب الحصينة[٢]،وفتحها بعد حصار طويل سنة (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م)[٣] فأثارت انتصاراته هذه إعجاب السلطان السلجوقي محمود فمنحه تفويضاً بحكم الموصل والجزيرة والشام.

ثم تابع مهاجمة الفرنج حتى أحرز أكبر نصر له عليهم عندما استرد من أيديهم مدينة الرّها سنة (٥٣٩هـ/١١٤٤م)[٤] التي كانت عاصمة أوّل إمارة صليبية، فصار قصارى جهد الفرنج حفظ ما بأيديهم منه بعد أن كانت أطماعهم في هذه البلاد لا حدود لها.

وبينما كان عماد الدين يحاصر قلعة جعبر[٥] سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م) اغتاله أحد غلمانه في أثناء نومه[٦]، فرثاه الشعراء، وأشادوا بانتصاراته على الأعداء، وجهاده في سبيل الله[٧].

نور الدين محمود:

ولد سنة (٥١١هـ/١١١٧م)[٨]، ونشأ في كنف والده على الخير والصلاح

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ٣٢.

(٢) قلعة الأثارب: تقع بين حلب وأنطاكية (ياقوت: معجم البلدان: ج١: ص ٨٩).

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٣٩-٢.

(٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق: ص٢٧٩-٢٨٠،وابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ٦٦-٧٠، والروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص٩٤-٩٧.

(٥) قلعة جعبر: تقع على نهر الفرات بين بالس والرقة (ياقوت: معجم البلدان: ج٢: ص١٤١-١٤٢).

(٦) أبو شامة: الروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص١٠٧-١٠٩.

(٧) أبو شامة: الروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص١١٦-١١٨، وابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٧٤-٧٥.

(٨) أبو شامة: الروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص ٦٩، وابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية: ص١٥.

والعبادة « وكان أبوه يقدمه على بقيه أولاده ويرى فيه مخايل النجابة[١] » وعندما قتل والده عمل على إرضاء أخيه سيف الدين غازي (٥٤١ - ٥٤٤هـ/ ١١٤٦ - ١١٤٩م) الذي ولي بعد والده، فاتفقا على أن تكون الموصل لسيف الدولة وأن يملك نور الدين حلب وشمال الشام[٢]، ثم بادر نور الدين إلى استعادة الرّها ثانية من الصليبيين الذين كانوا قد استردوها بعد مقتل والده[٣]، ثم عقد اتفاقا مع معين الدين أنر (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) وزير دمشق[٤]، وتزوج من ابنته[٥]، وتابع جهاده، فحرر معظم الأراضي الواقعة شرقي العاصي من الصليبيين، وتصدى للحملة الصليبية الثانية التي جاءت لاستعادة الرّها (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) فعجزت عن ذلك، واتجهت إلى دمشق ، فهب نور الدين لنجدتها، وأجبر الصليبيين على فك الحصار عنها، ففشلت هذه الحملة ولم تحقق أيّاً من أهدافها[٦]، وبعد ذلك هاجم حصن أفامية وفتحه[٧]، وقتل صاحب أنطاكية سنة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)[٨]، ثم حاصر دمشق لتعاون حكامها مع الصليبيين، وتسلمها صلحاً سنة (٥٤٩هـ/ ١١٥٣م)[٩]، « فصار جميع ما بالشام من

---

(١) ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية : ص١٥ .

(٢) أبو شامة المقدسي : الروضتين : حلمي : ج١ : ق١ : ص١١٩-١٢٣، وابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية : ص١٢١-١٢٢ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق : ص٢٨٨، وابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية : ص١٢٣ .

(٤) معين الدين أنر : وزير دمشق ومدبر الدولة فيها، ومقدم جيشها، وكان محنكا شجاعا، توفي سنة ٥٤٤هـ .(ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ج٩ : ص٣٥٣-٣٥٤ ، ٣٦٤) .

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق : ص ٢٨٨ - ٢٨٩، وابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية : ص١٢٤ .

(٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق : ص٢٩٧-٣٠٠، أبو شامة المقدسي : الروضتين : حلمي : ج١ : ق١ : ص ١٣٤-١٣٨، وابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية : ص١٢٦-١٢٧ .

(٧) ابن الأثير : التاريخ الباهر : ص١٠٠-١٠١ وابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية : ص١٣١ .

(٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق : ص ٣٠٤-٣٠٥، وأبو شامة المقدسي : الروضتين : حلمي : ج١ : ق١ : ص١٥١-١٥٢، وابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية : ص١٣٠ .

(٩) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق : ص٣٢٧-٣٢٩، وابن الأثير : التاريخ الباهر : ص١٠٦-١٠٨ .

البلاد الإسلامية»[1] بيده.

وقد جهز بعد ذلك - ثلاث حملات إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه - بعد أن رأى تدخل الفرنج في شؤونها بسبب سياسة وزيرها شاور[2]، وكانت الحملة الأولى سنة (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م)[3]، والثانية سنة (٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)[4]، والثالثة سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م)، وقد رحل الفرنج بعد وصول شيركوه إليها[5].

وفي سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) عين الخليفة الفاطمي العاضد شيركوه وزيراً لمصر، وبعد أن توفي أسد الدين في العام نفسه، خلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيّوبي الذي ألغى الخلافة الفاطمية في مصر، وأعاد مصر إلى الخلافة العباسية بناء على أمر نور الدين محمود له سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧٢م)[6]، فتم بذلك توحيد مصر والشام تحت لواء نور الدين فضلاً عن الموصل، وديار الجزيرة واليمن، «وخطب له بالحرمين مكة والمدينة»[7].

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٠٨.

(٢) شاور: وزير مصري اختلف مع كبير حجابه ضرغام، ثم استعان عليه بنور الدين محمود الذي أرسل معه أسد الدين شيركزه، وبعد أن استعاد وزارته اختلف مع شيركوه، واستعان بالإفرنج ضده، ثم قتله صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م) (الحافظ الذهبي: العبر في خبر من غبر: ج٣: ص ٤٣).

(٣) ابن الأثير: الكامل: ج٩: ص٤٦٥-٤٦٧، وأبو شامة المقدسي: الروضتين: حلمي: ج١: ق٢: ص٣٣١-٣٣٨، والفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص١٩ (مختصر البرق الشامي للعماد الكاتب).

(٤) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٣٦٣-٣٦٧، والفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص٢٠.

(٥) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٣٨٩-٤٠١، وابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية: ص١٧٥-١٧٨.

(٦) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٠٢-٤١٠، ٤٩٢-٥٠٩.

(٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٦٢.

لم تطل حياة نور الدين بعد ذلك، إذ توفي سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م)[١]، ومع أنه استعاد من أيدي الفرنج «نيفا وخمسين حصنا»[٢] إلاّ أن أمنيته الكبرى بتحرير المسجد الاقصى وبيت المقدس لم تتحقق على يديه، وكان قد أمر الأخريني – أمهر النجارين في حلب – بصنع منبر جميل يليق بالمسجد الأقصى لينقل إليه عند تحرير القدس من الفرنج وقد أوصاه أن يأتي المنبر على أحسن نعت ممكن[٣]. وقد رثاه الشعراء رثاء حاراً وأشادوا بمناقبه، وجهاده، وخصاله الحميدة[٤].

الصالح إسماعيل:

كان الصالح إسماعيل – حين وفاة والده نور الدين محمود – صغيراً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره[٥] فبويع بالملك من بعده، واتفق الأمراء على أن يكون شمس الدين محمد بن المقدم، مقدم جيشه والمرجع في الأمور كلها[٦]، وأعلم الأمراء والولاة بما حدث، فأرسل صلاح الدين كتابا للملك الصالح إسماعيل يعزيه بوفاة والده ويهنئه بالملك[٧]، وأمر بإقامة الخطبة له بمصر، وضرب السكة باسمه[٨]، ولكن أمراء الصالح إسماعيل اختلفوا فيما بينهم فطمع الأعداء من كل جانب بالمسلمين في بلاد الشام، وعزم الفرنج على قصد دمشق

---

(١) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٧٧–٥٨٢، وسبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: ج٨: ص٣٠٥.

(٢) ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية: ص١٦.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٢٢٨.

(٤) أبو شامة: الروضتين: حلمي: ج١: ق٢: ص٥٨٦ – ٥٨٨، والعماد الكاتب: الديوان: ص٢١٢ – ٢١٦، ٤١٠–٤١٨ وغيرها.

(٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٦٢، وأبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٨٥، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص١، وابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية: ص٢٢٩.

(٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٦٢، وأبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٨٥.

(٧) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٨٧، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٤.

(٨) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص ٥٨٥: وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٤.

وانتزاعها منهم[١]. كما حاول سيف الدين غازي بن مودود – ابن أخي نور الدين محمود – أن ينفصل عن جسد الدولة، وأن يستولي على أجزاء من مملكة عمه[٢].

ومما زاد الأمر سوءا في بلاد الشام والجزيرة أنَّ صلاح الدين – في هذه الأثناء – كان مشغولا بمواجهة الصليبيين الذين هاجموا الإسكندرية[٣]، وبالقضاء على الفتن الداخلية التي ثارت من أجل إعادة الدولة الفاطمية في مصر[٤].

وحينما حاصر الفرنج بانياس سنة (٥٦٩هـ/١١٧٤م) لم يقوَ شمس الدين ابن المقدم على دفعهم، فعقد معهم هدنة ، وقطع لهم على المسلمين قطيعة، فغضب صلاح الدين لذلك[٥]، وتوجه إلى دمشق لخدمة الملك الصالح، ودخلها سلماً سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م)[٦]، ولكن مدبري أمر الملك الصالح بحلب بعثوا إلى صاحب الموصل سيف الدين غازي يستنجدون به، فوصلت عساكر سيف الدين إلى حلب، وانضمت إلى عساكر الملك الصالح، ثم اشتبكت هذه الجيوش مع جيش صلاح الدين قرب حماة سنة (٥٧٠هـ/١١٧٥م)، فانتصر صلاح الدين وفر المنهزمون إلى حلب، فتبعهم وحاصرهم حتى صالحوه سنة (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م) على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم[٧]، فقامت

---

(١) ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية: ص٢٢٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص ٥٩، وأبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٩٠–٥٩١، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٥–٦.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٤٨، وابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٦٣–٦٤، وأبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٩٨–٦٠٠.

(٤) الفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص٨٠، وابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٦٤–٦٥، وأبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٦٠٠ – ٦٠٣).

(٥) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٦٠، وأبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٩٤–٥٩٥، وابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية: ص ٢٢٩– ٢٣٠.

(٦) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٦٠٢–٦٠٣.

(٧) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٦٣٣ – ٦٤٠، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٤٦.

بذلك الدولة الأيوبية في مصر والشام، مع أنَّ حلب وما حولها بقيت في حوزة الملك الصالح حتى وفاته سنة (٥٧٧هـ/ ١١٨١م)[١] ثم استولى صلاح الدين عليها سنة (٥٧٩ / ١١٨٣م)[٢]، فزال ظل الدولة الزّنكية عن بلاد الشام ومصر، واستمر حكم الزَّنكيين للموصل وشمال العراق حتى تم الصلح بين صاحب الموصل عز الدين مسعود وبين صلاح الدين على أن يكون صاحب الموصل تابعاً لصلاح الدين ، وأن يخطب له على المنابر ، وأن تضرب السكة باسمه[٣]، « وبذلك تحققت الوحدة الإسلامية من الفرات إلى النيل »[٤].

الدولة الأيوبية :

ينتسب الأيوبيون إلى جدهم شادي، وهم من الاكراد الرواذية[٥]، من بلدة دُوِين[٦]، وقد أقام نجم الدين أيوب – والد صلاح الدين – مع أخيه أسد الدين شيركوه في بلدة تكريت حيث كان واليا لها[٧]، وعندما انهزم عماد الدين زنكي وجرح سنة (٥٢٦هـ/ ١١٣١م) التجأ إليهما في سوق تكريت حيث عولج وأكرم، وعندما نشب الخلاف بينهما وبين بهروز شحنة بغداد ومتولي العراق – آنذاك –، تركا خدمته سنة (٥٣٢هـ/ ١١٣٧م)، والتحقا بعماد الدين زنكي الذي حفظ لهما صنيعهما معه، وأقطعهما في شهرزور إقطاعا كبيرا[٨]، ثم صحب هذان الأخَوان عماد الدين في كثير من حروبه في بلاد الشام، وأبلى فيها

---

(١) أبو شامة المقدسي : الروضتين : ج٢ : ص٢٢، وابن واصل : مفرج الكروب : ج٢ : ص١٠٦ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية : ص٥٩، وابن واصل : مفرج الكروب : ج٢ : ص١٤١–١٤٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب : ج٢ : ص١٧٢ .

(٤) سعيد عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك : ص٤٧ .

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج٦ : ص٣–٤، وقد روى بعض المؤرخين أن أصل الأيوبيين من العرب المهاجرين من الجزيرة العربية، ونسبوهم الى بني أمية (ابو شامة المقدسي : الروضتين : ج١ : ق٢ : ص٥٣٤) .

(٦) دوين : هي بلدة في آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس (ياقوت : معجم البلدان : ج٢ : ص٤٩١) .

(٧) أبو شامة المقدسي : الروضتين : ج١ : ق٢ : ص٣٢٩–٣٣١، ٥٣٤–٥٣٨ .

(٨) المصدر السابق : ج١ : ق٢ : ص٥٣٦–٥٣٨ .

أسد الدين بلاء حسنا، وعندما استولى عماد الدين على بعلبك سنة (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) ولى أمرها نجم الدين أيوب، ثم انتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م) وأصبح من كبار أمرائها[١].

وبعد مقتل عماد الدين زنكي، استمرت علاقة أسد الدين بنور الدين محمود فقربه إليه، وأجزل له العطاء، حتى صار من كبار أمراء دولته، ثم أرسله – كما رأينا – في حملات إلى مصر حيث طرد منها الفرنج في حملته الثالثة، ثم تولى الوزارة فيها بعد مقتل شاور، وتلقب بالملك المنصور، ولكنه توفي بعد ذلك بقرابة شهرين سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م)[٢].

صلاح الدين يوسف بن أيوب :

ولد ليلة رحيل والده من تكريت إلى الموصل[٣]، ثم نشأ وترعرع في كنف والده، وأخذ عنه براعته في السياسة، وشجاعته في الحرب، وحفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف، ودرس الفقه، وألمَّ بعلوم عصره، وبدأ نجمه في الصعود منذ أن سار مع عمه أسد الدين شيركوه في حملته الأولى إلى مصر، ثم في حملته الثانية التي أظهر فيها شجاعة وكفاية ملحوظتين عندما حاصره الفرنج في الاسكندرية سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦م)[٤]، ثم في حملته الثالثة التي صحبه فيها مكرهاً[٥]، فأبلى فيها بلاء حسنا.

وبعد وفاة عمه أسد الدين، أسند الخليفة الفاطمي العاضد الوزارة في مصر إليه سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م)[٦]، فألغى بعد مدة من توليه الوزارة – كما رأينا

---

(١) أبو شامة المقدسي : الروضتين: ج١ : ق٢ : ص٣٣٠ .

(٢) المصدر السابق: ج١ : ق٢ : ص٤٠٥-٤٠٦ .

(٣) أبو شامة المقدسي : الروضتين: ج١ : ق٢ : ص٥٣٩، وابن شداد : النوادر السلطانية: ص٦، وابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية: ص١٠٧ .

(٤) أبو شامة المقدسي : الروضتين: ج١ : ق٢ : ص٣٦٣-٣٦٨، ٣٩٤، ٤٣٨-٤٣٩ .

(٥) المصدر السابق: ج١ : ق٢ : ص٣٩٤ .

(٦) المصدر السابق: ج١ : ق٢ : ص٤٣٨-٤٣٩ .

– الخلافة الفاطمية، والمذهب الفاطمي فيها، وأعاد إليها المذهب السني، وخطب فيها للخليفة العباسي المستضيء بنور الله (٥٦٦ – ٥٧٥هـ/ ١١٧٠–١١٧٩م)[١].

وبعد وفاة نور الدين محمود استولى صلاح الدين الأيوبي على معظم بلاد الشام – كما رأينا – فاعترف الخليفة العباسي بحكمه خلفاً لنور الدين، وخلع عليه، وأرسل إليه مرسوماً بحكم الشام ومصر معاً[٢].

وبعد وفاة الملك الصالح إسماعيل، نازل صلاح الدين حلب واستولى عليها سنة (٥٧٩هـ/ ١١٨٣م)[٣]، فدانت له بلاد الشام الإسلامية كلها فضلاً عن مصر واليمن وبرقة وأجزاء من الجزيرة العربية.

معركة حطين الحاسمة:

سلك صلاح الدين بعد ذلك النهج الجهادي الذي سار عليه من قبله المجاهدان عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود لتحرير بلاد الشام من الصليبيين، فواصل حربه معهم إلى أن استعاد طبرية ، ثم اشتبك مع جيوشهم مجتمعة في معركة حطين فهزمهم هزيمة نكراء سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) «فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك من قتيل»[٤]، وكان من بين الأسرى ملك بيت المقدس جاي لوزجنان[٥]، وأخوه، وأرناط

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٣٣ – ٣٥، وأبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٩٢ – ٥٠٩.
الخليفة العباسي المستضيء بنور الله: أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله بن يوسف بن المقتفي العباسي، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م)، وكان ذا دين وحلم وأناة، وعدل وكرم، ومعروف زائد، وتوفي سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م) (الحافظ الذهبي: العبر في خبر من غبر: ج٣: ص٦٨).

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٦٣٣ – ٦٣٩.

(٣) المصدر السابق: ج٢: ص٤٢ – ٤٣.

(٤) أبو شامة : الروضتين: ج٢: ص٧٨. وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص١٩٣.

(٥) هو جاي لوزجنان Guy de Lusignan ملك بيت المقدس من (٥٨٢–٥٨٣هـ/١١٨٦–١١٨٧م) وقد اشترك في معركة حطين وأسر فيها.

(Zoe Oldenbourg : The Crusades, pp. : 394, 399-402, 405-417).

صاحب الكرك[١]، كما أسر الجيش المسلم عددا كبيرا من فرسانهم[٢]، وقد كانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي، اذ لم يصب الفرنج بهزيمة مثلها - كما ذكر ابن الأثير - منذ أن بدأ الغزو الصليبي لبلاد الشام[٣].

وبعد حطين استرد صلاح الدين عكا ونابلس وحيفا وصفورية والناصرة وصيدا وبيروت وجبيل والرملة وتبنين وبيت لحم ، والخليل وعسقلان وغزة، والداروم، وأرسوف، وغيرها، واستولى كذلك على المدن والحصون الداخلية الواقعة جنوب طبرية ما عدا حصني الكرك والشوبك[٤].

ثم توجه إلى مدينة بيت المقدس وحاصرها مدة شهرين إلى أن دخلها صلحاً في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة (٥٨٣هـ/ ١٢ تشرين الثاني ١١٨٧م)، وعامل الصليبيين فيها معاملة سمحة، ولم يثأر مما فعلوه عند احتلالهم لها[٥]، ونقل المنبر النوري من حلب إلى المسجد الأقصى المبارك[٦].

وقد احتفل المسلمون باسترداد بيت المقدس احتفالاً عظيماً، وارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير، ووزعت الصدقات بهذه المناسبة العظيمة، ثم أمر صلاح الدين بعمارة المسجد الأقصى، وجميع المساجد والمشاهد في هذه المدينة، كما بنى المدارس، والربط للصالحين والصوفية[٧]، ثم تابع جهاده ضد الغزاة،

---

(١) هو Reginald of chatillon صاحب الكرك من (٥٧٢-٥٨٣هـ/١١٧٦-١١٨٧م) وقد اشتهر بطيشه وغدره واعتدائه على الحجاج المسلمين وقوافلهم، وبمحاولة الاعتداء على الأماكن المقدسة في الحجاز، وقد أُسر في حطين وقتله صلاح الدين بيده (أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٧٥، ٧٩).
و (K.M. Setton (ed), A History of The Crusades, Vol : I ,pp. 606, 614, 618)

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص١٩٢-١٩٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص١٤٨.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٨٥-٩٤.

(٥) المصدر السابق: ج٢: ص٩٤-٩٩.

(٦) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص١١٢، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٢٢٩.

(٧) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص١١٣-١١٤.

فاسترد منهم حصني الكرك والشوبك وغيرهما[١].

وبعد هذه الأحداث الكبيرة وصلت الحملة الصليبية الثالثة التي اشترك فيها ملوك انجلترا وفرنسا وألمانيا، فحاصر الصليبيون مدينة عكا مدة عامين ثم فتحوها في سنة (٥٨٧هـ/ ١١٩١م)، وقتلوا فيها الأسرى المسلمين[٢]، ثم احتل ريتشارد قلب الأسد (Richard Lion - Heart) – ملك انجلترا – جزءاً من الساحل يمتد من صور إلى يافا[٣]، وحاول استرداد بيت المقدس ولكنه فشل، وانتهت هذه الحملة بعقد صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد في سنة (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م)[٤].

ولم تطل حياة صلاح الدين بعد ذلك، إذ توفي في السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ/ الثالث والعشرين من آذار ١١٩٣م[٥]، فحزن عليه المسلمون حزناً عظيماً، ورثاه الشعراء رثاء حارا وأشادوا بأعماله وانتصاراته[٦].

الأيّوبيون بعد صلاح الدين:

انقسمت الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين بين أبنائه وإخوته وأقاربه، فأصبحت الشام لابنه الأكبر الأفضل نور الدين علي (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، وهو الذي أوصى له أبوه بالسلطنة من بعده، ومصر لابنه العزيز عماد الدين عثمان (٥٨٩ – ٥٩٥هـ/ ١١٩٣ – ١١٩٨م)، وحلب وشمال الشام لابنه الظاهر غياث الدين غازي (–٦١٣ / ١٢١٥م)، والكرك والشوبك وجعبر لأخيه الملك العادل

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج٢ : ص١٣٤–١٣٥.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية : ص١٧١–١٧٥.

(٣) المصدر السابق: ص١٧٥–٢١٥.

(٤) المصدر السابق: ص ٢١١–٢٣٧.

(٥) المصدر السابق: ص٢٤٦–٢٤٧.

(٦) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج٢: ص٢١٢ – ٢٢٤، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٤٢٧ – ٤٣٩ وغيرها، والعماد الكاتب الأصفهاني: الديوان: ص٨٦–٩٢.

سيف الدين أبي بكر (-٦١٥هـ/ ١٢١٨م)، وحمص والرحبة لأسد الدين شيركوه الصغير - حفيد عمه شيركوه -، وحماة وما حولها للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، واليمن لأخيه الملك ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب[١].

ولم يكن الملك الأفضل يصلح للسلطنة، لسوء سيرته، وانشغاله بأموره الخاصة عن الرعية، فوضع كل ثقته في وزيره ضياء الدين بن الأثير[٢]، ونبذ رجال أبيه من الأمراء، فلجأوا إلى أخيه الملك العزيز عثمان حاكم مصر، وحسنوا له عزل أخيه عن السلطنة وملك الشام[٣]، ووافقه عمه العادل على ذلك[٤]، فدبَّ النزاع بين ملوك البيت الأيوبي، واستمر سبع سنوات إلى أن انتهى بتوحيد البيت الأيوبي تحت زعامة الملك العادل - أخي صلاح الدين (٥٩٦ - ٦١٥هـ/ ١٢٠٠ - ١٢١٨م) الذي كان في البداية حكماً بين أبناء أخيه[٥].

وفي هذه الأثناء قامت الحملة الصليبية الرابعة لاحتلال مصر[٦]، ولكنها انحرفت عن اتجاهها وهاجمت القسطنطينية، واستولت عليها سنة (٦٠١هـ/

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٣: ص ٣-٥.

(٢) هو أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري ولد سنة (٥٥٨هـ/١١٦٢م) في جزيرة ابن عمر، ونشأ بها، ثم ارتحل إلى الموصل، وتلقى بها دراسته الاولى، ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي، ثم أصبح وزيراً لدى ابنه الملك الأفضل، ثم تقلبت به الأحوال بعد عزل الأفضل، ثم التحق بديوان إنشاء صاحب الموصل حتى توفي سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، وله مؤلفات مشهورة منها: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، والجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، والاستدراك، والوشي المرقوم في حل المنظوم، وديوان ترسله، والأخبار النبوية، والأمثال، والبديع وغيرها، ويعد من أعظم كتاب عصره ونقاده (ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٥: ص٣٨٩-٣٩٧، والعبر: ج٥: ص١٥٦).

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٣: ص١٠-١٥، ٢٨-٣٣.

(٤) المصدر السابق: ج٣: ص٢٨-٣٥.

(٥) المصدر السابق: ج٣: ص٢٨-١١٥.

(٦) سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك: ص٨٦-٨٧.

١٢٠٤م)[١]، ثم تبعتها الحملة الصليبية الخامسة فوصلت إلى دمياط، وتوفي السلطان العادل في سنة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م)، والبلاد في خطر داهم، فخلفه ابنه الملك الكامل محمد في حكم مصر، وابنه الملك المعظم عيسى (-٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) في حكم دمشق، وابنه الملك الأشرف موسى (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) في حكم ديار بكر والجزيرة وأرمينية وما حولها...[٢].

وقد عرض الكامل على الصليبيين مغادرة دمياط مقابل إعادة مملكة بيت المقدس إليهم باستثناء الكرك والشوبك، فأبوا إلاّ أن تكونا ضمن العرض[٣]، ثم استولى الصليبيون على دمياط بعد حصار دام تسعة أشهر فوضعوا السيف في رقاب سكانها، ونهبوها سنة (٦١٦هـ/ ١٢١٩م)[٤]، وبعد ذلك توجهوا صوب القاهرة، فاجتمع الإخوة الكامل، والمعظم، والأشرف، بجيوشهم في المنصورة لمواجهتهم[٥]، ثم ساء موقف الفرنج بعد أن غمرتهم مياه النيل، واضطروا إلى مغادرة دمياط والخروج من مصر[٦]. ولكنّ الأيوبيين ما لبثوا - كعادتهم حين يزول عنهم خطر العدو - أنْ عادوا إلى ما درجوا عليه من صرف قوتهم في المنازعات الداخلية لتحقيق كل منهم مطامع إقليمية على حساب الآخر[٧]. فانقسم البيت الأيوبي على نفسه ثانية إلى فريقين: فريق مع الملك الكامل محمد، وآخر مع أخيه الملك المعظم عيسى، واستعان كل منهما بقوة خارجية،

---

(١) الحافظ الذهبي: العبر في خبر من غبر: ج٣: ص١٣١.

(٢) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص ٣٩٣ -٣٩٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٣٧٩، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٤: ص٩٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ٣٧٥ -٣٧٧.

(٥) المصدر السابق: ج١٠: ص٣٧٧-٣٧٩، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٤: ص٩٤-٩٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٣٧٧ -٣٨٠، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٤: ص٩٤-٩٩، وأبوشامة المقدسي: ذيل الروضتين: ص١٣٠ (تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بذيل الروضتين).

(٧) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٤٦٨-٤٦٩، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٤: ص ١٢٧-١٢٩.

فاستنجد الملك الكامل بالامبراطورفردريك الثاني[١] طالبا مساعدته ضد أخيه، مقابل إعطائه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل[٢]، مع أنّ تلك الأملاك كانت لأخيه المعظم عيسى، ولم يكن له حق التنازل عنها، واتفق المعظم عيسى مع جلال الدين الخوارزمي ضد أخيه الأشرف وحرضه ضده ، فحاصرت جيوشهما عاصمته خلاط[٣] في سنة (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م)[٤].

وتوفي الملك المعظم عيسى في سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م)[٥]، فخلفه ابنه الملك الناصر داود (-٦٥٦هـ/ ١٢٥٨)[٦]، فاستغل الكامل هذه الفرصة، واستولى على بيت المقدس ونابلس، واستنجد الناصر داود بعمه الأشرف موسى، فقدم لنجدته، ولكنه ما لبث أن اتفق مع أخيه الكامل على الاستيلاء على دمشق سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)[٧]، وفي هذه الأثناء وصل فردريك الثاني المحروم من الكنيسة البابوية في حملة صليبية سادسة، ومعه خمسمائة فارس فقط إلى عكا، وطالب الكامل بالوفاء بوعده، فعقد معه الكامل اتفاقية يافا في سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، وسلمه بموجبها القدس وبيت لحم والناصرة. وتبنين وصيدا فضلا عن طريق الحاج الصليبي من يافا إلى القدس، وتعهد فردريك الثاني مقابل ذلك بمحالفة الكامل ضد جميع أعدائه، ولو كانوا من الصليبيين، وقد أثار

---

(١) هو ملك الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي سعى إلى توسيع سيطرته على إيطاليا وصقلية، ووعد البابا بالقيام بحملة صليبية إلى المشرق بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، وتزوج من بولاند وريثة عرش بيت المقدس، وابنة حنا دي برين (سعيد عاشور: الحركة الصليبية: ج٢: ص٩٤٥-٩٧٢).

(٢) المقريزي: السلوك: ج١: ق١: ص٢٢١-٢٢٢.

(٣) خلاط: هي مركز أرمينية الوسطى، وتقع على شاطيء بحيرة خلاط (ياقوت: معجم البلدان: ج٢: ص٣٨٠-٣٨١).

(٤) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٤٦٦-٤٦٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص ٤٧٣-٤٧٤، وابن واصل: مفرج الكروب: ج٤: ص٢١٨-٢١٩.

(٦) الذهبي: العبر: ج٣: ص٢٨٠.

(٧) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٤٨٢-٤٨٣.

تسليم بيت المقدس بهذه السهولة موجة من السخط والأسى لدى المسلمين، «ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه»[١].

ثم توفي الكامل سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٨م) فبايع أمراء دولته ابنه الأصغر العادل الثاني (٦٣٥-٦٣٧هـ/١٢٣٨-١٢٤٠م) ليكون ألعوبة في أيديهم[٢]، وتجاهلوا ابنه الأكبر الصالح نجم الدين أيوب الذي كان يقيم في سنجار[٣] حاكما لأملاك أبيه في الشمال، فسار الصالح باتجاه دمشق ثم مصر فاستولى عليهما في سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩-١٢٤٠م)[٤].

وقد بقي الصراع الداخلي - بعد ذلك - مستمراً بين الأيوبيين، فكل منهم يريد التوسع على حساب الآخر، ولم يحاول الأيوبيون استعادة مدينة بيت المقدس منذ تسلمها فردريك الثاني حتى قام الملك الناصر داود أمير الكرك باستردادها سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) بعد حصار لقلعتها استمر سبعة وعشرين يوما[٥]، وبقيت القدس في يد الناصر داود حتى سلمها الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل (-٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)[٦] صاحب دمشق للصليبيين سنة (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م) مقابل مساعدتهم له ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم استردها نجم الدين أيوب عن طريق الخوارزمية من الصليبيين نهائيا سنة (٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م)، وتمكن - أيضاً - من استرداد بعض المدن الساحلية فضلاً عن طبرية ونابلس[٧].

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٤٨١، وانظر - أيضاً - ابن واصل: مفرج الكروب: ج٤: ص٢٤١ - ٢٤٦.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب. ج٥: ص١٧٢، ٢٦٥.

(٣) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، وفي وسطها نهر جار، وفيها بساتين كثيرة تقع بين الموصل ونصيبين، ونسب إليها جماعة وافرة من أهل العلم (ياقوت: معجم البلدان: ج٣: ص٢٦٢-٢٦٣).

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٥: ص٢٦٥-٢٦٧.

(٥) المصدر السابق: ج٥: ص٢١٩-٢٤٩.

(٦) الذهبي: العبر: ج٣: ص٢٦٠-٢٦١.

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٥: ص٣٣٢، ٣٣٦-٣٤٠.

وكان نجم الدين أيّوب ذا شخصية قوية، فقضى على النزاعات داخل البيت الأيّوبي، وأعاد توحيد مصر والشام تحت سلطانه[١]، وأدى استرداد نجم الدين أيوب لبيت المقدس إلى قدوم الحملة الصليبية السابعة بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع، فاستولت تلك الحملة على دمياط في سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) دون قتال، ثم زحف الفرنج باتجاه القاهرة، وفي هذه الظروف الحرجة توفي الصالح نجم الدين أيوب في شعبان سنة (٦٤٧هـ/تشرين الثاني ١٢٤٩م)[٢]، فتصرفت زوجته شجرة الدر[٣] بحكمة وبعد نظر كبيرين، إذ أخفت خبر وفاة زوجها سوى عن أميرين كانا موضع ثقتها، واستمرت في إصدار المكاتبات الرسمية باسم السلطان وتوقيعه، حتى لا يحدث نبأ وفاته بلبلة او تشتيتا لقوة الجيش، أو صراعا بين الأمراء على السلطة[٤]، كما أخذت البيعة من ذينك الأميرين لابن زوجها توران شاه المقيم في حصن كيفا[٥]، وأرسلت إليه تستدعيه للحضور إلى مصر بسرعة لاستلام السلطنة، فوصل توران شاه إلى مصر[٦] ثم هُزم الصليبيون هزيمة نكراء في فارسكور[٧]، والمنصورة سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، وأُسِر ملكهم لويس التاسع وأخوه وخواصه[٨].

لم يطل حكم توران شاه بعد هذا النصر، إذ لم يحفظ الجميل لزوج أبيه

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٥: ص٣٤٨-٣٥٢.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٣٦١-٣٦٢.

(٣) كانت شجرة الدر أم خليل بارعة الحسن، ذات ذكاء وعقل ودهاء وشجاعة، وهي من أصل تركي، أحبها الملك الصالح نجم الدين أيوب وتزوجها (الذهبي: العبر: ج٣: ص٢٧٦).

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٣٦٤.

(٥) حصن كيفا: بلدة وقلعة كبيرة مشرفة على نهر دجلة، بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر (ياقوت: معجم البلدان: ج٢: ص٢٦٥).

(٦) المقريزي: السلوك: ج١: ق٢: ص٣٥٢-٣٥٣، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة: ج٦: ص٣٦٤.

(٧) الفارسكور: من قرى مصر قرب دمياط في محافظة الدقهلية (ياقوت: معجم البلدان: ج٤: ص٢٢٨).

(٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٣٦٤-٣٦٦.

شجرة الدر التي كانت قد غادرت مصر إلى بيت المقدس بعد وصوله إليها، فأرسل إليها مطالباً بأموال أبيه وتوعدها بالسوء[١]، فأخبرت المماليك البحرية بذلك، وحرضتهم عليه[٢]، وكان قد تنكر لهم وأساء معاملتهم، فقرروا التخلص منه فقُتِل شر قتلة في السابع والعشرين من محرم سنة (٦٤٨هـ/ آذار ١٢٥٠م) ومكثت جثته في العراء ثلاثة أيام حتى تشفع في دفنه رسول الخليفة[٣].

وبمقتل توران شاه زالت الدولة الأيوبية بعد حكم استمر واحدا وثمانين عاما حققت خلاله «الكثير من المجد والانتصار على العدو الصليبي الذي جثم على أنفاس الوطن العربي الإسلامي في الشرق الأدنى»[٤].

وأجمع الأمراء على أن تتولى شجرة الدر الملك على أن يكون مدبر الملك معها الأمير المملوكي عز الدين أيبك[٥]، ولكن الخليفة العباسي كتب إلى أمراء مصر «أعلمونا إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة، فنحن نرسل لكم من يصلح لها، أما سمعتم في الحديث عن رسول الله (ﷺ) أنّه قال: «لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[٦]: فأشار عليها القضاة والأمراء أن تتزوج من مدبر ملكها، فخلعت نفسها، وبايعت زوجها الجديد سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)[٧]، ورفض الأيوبيون في الشام الانصياع لحكم السلطان أيبك، فجمعوا جيوشهم بزعامة الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب، وزحفوا باتجاه

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٣٧١.

(٢) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٣٧١، وابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور: ج١: ق١: ص٢٨٣-٢٨٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٣٧١.

(٤) إسمت غنيم: الدولة الأيوبية والصليبيون: ص١٢٨.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور: ج١: ق١: ص٢٨٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٣٧٣ - ٣٧٥.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور: ج١: ق١: ص٢٨٧.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور: ج١: ق١: ص٢٨٧، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٣٧٤.

مصر لحرب المماليك، فدارت معركة فاصلة بين الفريقين قرب العباسية (٦٤٨هـ/ ١٢٥١م) انهزم فيها الأيوبيون، وفرَّ الناصر يوسف وجيشه عائدين إلى الشام[٥]. ثم تآمرت شجرة الدر على زوجها أيبك فقتل، ثم قتلها مماليكه في سنة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)[٢]، فتولى المنصور علي بن أيبك السلطنة بعد أبيه[٣]، وكان في الخامسة عشرة من عمره[٤]، ثم استولى المغول على بغداد سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) ودمروها، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي[٥]، ثم اندفعوا باتجاه الشام، فاحتلوا حلب، واستباحوها لجنودهم، ثم زحفوا إلى دمشق فنهبوها، ثم ساروا إلى بعلبك وبانياس وغزة[٦]. «فقتلوا الرجال وسبوا النساء والصبيان...»[٧]، ثم استولى الأمير المملوك قطز على السلطنة من علي بن أيبك سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م)[٨] وسار لمواجهة المغول حيث هزمهم في معركة عين جالوت الحاسمة سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)[٩]، ثم استرد منهم دمشق، وقام الأمير بيبرس بمطاردة المغول حتى حلب[١٠]، وبذلك استطاع قطز أن يبسط سلطان المماليك على الشام مع أنّه سمح لبعض الأمراء الأيوبيين بأن يعودوا لولاياتهم في حمص وحماة بعد استردادها من المغول وإقرارهم بالتبعية لسلطان المماليك في مصر[١١].

---

(١) الحافظ الذهبي: العبر: ج٣: ص٢٥٩-٢٦٠، وابن تغري بردى: النجوم الزاهرة: ج٧: ص٦-٩.

(٢) الحافظ الذهبي: العبر: ج٣: ص٢٧٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٣٧٥-٣٧٩.

(٣) الحافظ الذهبي: العبر: ج٣: ص ٢٧٥-٢٧٦، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج٧: ص٤١.

(٤) الحافظ الذهبي: العبر: ج٣. ص٢٧٦، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ج٧: ص٤١.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٧: ص٤٧-٥٠، ٧٤-٧٨.

(٦) الحافظ الذهبي: العبر: ج٣: ص ٢٨٧ - ٢٨٨، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٧: ص٧٤ - ٧٧.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٧: ص٧٧.

(٨) الحافظ الذهبي: العبر: ج٣: ص٢٨٥، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٧: ص٥٥.

(٩) الحافظ الذهبي: العبر: ج٣: ص٢٨٧-٢٨٨، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٧: ص٧٩-٨٠.

(١٠) الحافظ الذهبي: العبر: ج٣: ص٢٨٨، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٧: ص٨٢.

(١١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٧: ص٨٣.

الحياة الاجتماعية[١]:

فئات الشعب:

يمكننا تقسيم المجتمع في مصر والشام – آنذاك – إلى أربع فئات هي: الطبقة الحاكمة، والفقهاء والعلماء، والشعب، وأهل الذمة.

فقد اعتمد الزَّنكيون كثيرا في توطيد ملكهم على أبناء جلدتهم الأتراك، فأسندوا إليهم إمارة الولايات، وقيادة الجيوش، كما أسندوا بعض الوظائف للأكراد[٢]. وعندما استولى الأيوبيون على الحكم في مصر سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)، وعلى بلاد الشام في السنة التالية[٣]، أصبحت نيابة السلطنة، وإمارة الولايات، وقيادة الجيوش – غالباً – في أيدي الأكراد ومماليكهم، ومال كثير من المتنفذين والأمراء إلى العيش المترف، وغالوا في استعمال الذهب والجواهر والفضة[٤].

ومن ناحية أخرى، عزف بعض الحكام عن مباهج الحياة ومغرياتها وصرفوا جهدهم إلى الأعمال الصالحة وجهاد الفرنج الغزاة مثل نور الدين محمود[٥]، وصلاح الدين الأيوبي[٦]، والملك العادل محمد الذي طهر البلاد «من الخمور والخواطي والقمار والمخانيث والمكوس والمظالم»[٧]، والملك الأشرف موسى الذي أعتق مماليكه وجواريه تقرباً إلى الله تعالى سنة ٦٣٣هـ[٨].

وقد لقب المؤرخون الفقهاء والعلماء بأهل العمامة، وهم فئة فقهت أمور الدين وتعاليمه، ونالت فضلاً عن ذلك حظاً وافراً من علوم العصر ومعارفه، وقد

---

(١) عمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك): ص ٥٩–٨٥.

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٣٢٩–٣٣١.

(٣) المصدر السابق: ج١: ق٢: ص٥٩٤–٦٠٥.

(٤) رحلة ابن جبير: ص٢٠٦–٢٠٧.

(٥) أبو شامة: ج١: ق١: ص١١–١٢.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٢١–٣٤.

(٧) محمد كرد علي: خطط الشام: ج٢: ص٨١.

(٨) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان: ج٨: ص٧١١–٧١٣.

حظي الفقهاء – غالباً – باحترام الطبقة الحاكمة في هذا العصر، إذ ولي فريق منهم وظائف مهمة، كأمانة السر، وكتابة التوقيع، والإشراف على الدواوين الحكومية، ولا سيما ديوان الإنشاء، وولي فريق آخر وظائف التدريس والقضاء والخطابة، وكان بعض القضاة لا يقبلون القضاء إلاّ بشروط معينة تضمن لهم إقامة العدل، فكان القاضي كمال الدين محمد بن عبدالله الشهرزوري (–٥٧٢هـ/ ١١٧٦م)[١] يقاضي السلطان نور الدين محمود كأي فرد من أفراد الرعية[٢]، وكان الفقيه عبدالله اليونيني (–٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)[٣] دائم النقد للملك الأمجد بهرام شاه (–٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م)[٤] صاحب بعلبك، وكان الملك الأمجد دائم الاعتذار إليه[٥]، وترك عز الدين بن عبد السلام (–٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)[٦]

---

(١) ولد بالموصل سنة ٤٩٢هـ، ثم رحل إلى بغداد وتفقه بها، ثم ارتحل إلى نور الدين محمود بدمشق سنة ٥٥٠هـ، فوكل اليه القضاء، وأمر المساجد والمدارس والحسبة، وإدارة أموال السلطان، ووصل أسمى المراتب، ولما آلت دمشق إلى صلاح الدين الأيوبي أبقى عليه نفوذه وثراءه حتى توفي سنة ٥٧٢هـ (ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج١: ص٢٤١–٢٤٥، وابن السبكي: طبقات الشافعية: ج٦: ص١١٧– ١٢١).

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص١٤–١٦.

(٣) هو عبدالله بن عثمان بن عثمان بن جعفر أصله من قرية يونين من قرى بعلبك، وكان زاهدا مجاهدا شجاعا نهاء عن المنكر عظيم الشأن وقد توفي سنة ٦١٧هـ وقد تجاوز الثمانين (الذهبي: العبر: ج٣: ص١٧٣–١٧٤).

(٤) هو الملك الأمجد مجد الدين أبو المظفر بهرام شاه بن فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك تملكها بعد والده خمسين سنة، وكان شاعرا فاضلا قتله مملوك له سنة ٦٢٨هـ (الذهبي: العبر في خبر من غبر: ج٣: ص٢٠٠)

(٥) الذهبي: العبر: ج٣: ص١٧٤.

(٦) هو عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم السلمي المغربي الأصل، الدمشقي المولد والنشأة ولد سنة (٥٧٨هـ)، ونشأ في أُسرة فقيرة جداً، ثم أخذ العلم والفقه والحديث عن كبار علماء عصره، ثم اشتغل بالتدريس ثم بالخطابة بالجامع الأموي، وكان جريئاً في قول الحق لا تأخذه فيه لومة لائم، فاختلف في ذلك مع سلاطين عصره، وكانت له مع السلاطين ونوابهم هناك مواقف جريئة حتى وُصفَ بأنه «أحد سلاطين العلماء». وقد توفي في سنة (٦٦٠هـ) وله مؤلفات عديدة منها: فوائد مشكل القرآن، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، ومسائل الطريقة في علم الحقيقة، والإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، وغيرها، (ابن السبكي طبقات الشافعية: ج٨: ص٢٠٩، وذيل الروضتين: ص٢١٦، اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ص١٧٢–١٧٦– والبداية والنهاية: ج١٣: ص٢٤٨).

الدعاء على المنبر للملك الصالح إسماعيل بسبب تحالفه مع الصليبيين، فعزله الملك الصالح عن الخطابة وسجنه، ولكنه عاد وأفرج عنه خوفاً من نقمة المسلمين. ثم توجه العز بن عبدالسلام إلى القاهرة فاستقبله الملك الصالح نجم الدين أيوب وأكرمه وفوضَّ إليه الخطابة في جامع عمرو بن العاص، وولاه قضاء مصر، ثم اختلف معه، ومع أعوانه مراراً، وأخيراً عزل نفسه عن القضاء، وكانت له مواقف مشهودة مع السلاطين الأيّوبيين والمماليك(١).

ويظهر من ذلك أنَّ العلماء المسلمين لم يكونوا معزولين عن قضايا الأمة الإسلامية، بل كانت لهم مواقف في الدفاع عن مصالح الشعب وحقوقه، إذ كانوا يعبرون في مواقفهم تلك عن ضمير الأمّة، ويدعون إلى وحدة الصف، فأخذوا – في مواعظهم وخطبهم يحثون الحكام على تناسي خلافاتهم، وتوحيد صفوفهم لمقاومة الفرنج الغزاة، ولاسترجاع ما اغتصب من المقدسات والأوطان، وحاربوا البدع والمفاسد الاجتماعية، وحثوا الحكام والناس على الامتثال لأوامر الله، واجتناب نواهيه ودعوا إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة.

وتشمل طبقة الشعب فئات التجار والصناع والفلاحين وسائر الناس، وكانت فئة التجار من أحسن فئات الشعب حالاً، وقد قرَّبَ بعض الحكام أغنياءهم ليمدوهم بالمال حين الحاجة، إذ كان التجار – أحياناً – يقرضون الدولة بكفالة الخليفة للإنفاق على الحرب(٢).

أمّا الصنّاع وأرباب المهن الحرة، فكانت أحوالهم المعيشية حسنة نسبياً، وقد ازدهرت أحوالهم في عهد نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي وخلفائه، حيث استقرت الأمور – نسبياً – في البلاد وازدهرت الصناعات(٣).

---

(١) ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى: ج٨: ص٢١٠–٢١١، ٢١٥–٢١٨.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١١٨–١١٩.

(٣) ديماند: الفنون الاسلامية: ص١٥٣، ١٩٩، ٢٣٧، ٢٦٧، وغيرها.

وأمّا الفلاحون فكانوا يشكلون السواد الأعظم من الشعب، وكان الفقر يغلب على معظمهم[١]، ولا سيما أنَّ نظام الإقطاع كان سائداً في ظل الدولتين الزَّنكية والأيّوبية.

وقد كثر الرقيق في بلاد الشام في هذا العصر كثرة واضحة ولا سيما من سبي الحروب، فكان الأرقّاء من الغلمان والجواري يشكلون – آنذاك – إحدى فئات الشعب فقلما نجد وجيهاً أو ثرياً إلاّ وحوله طائفة من هؤلاء المماليك، فالرجال يستخدمون في الحراسة والخدمة، والنساء يستخدمن في تربية الأولاد، وخدمة البيوت، وكان بعض هؤلاء المماليك يرقون إلى مكانة رفيعة لدى أسيادهم لإخلاصهم لهم، وتفانيهم في خدمتهم[٢].

أمّا أهل الذمّة وهم المعاهدون من أهل الكتاب من النصارى واليهود، فكان لكل منهما مذاهب متعددة، وكانوا يعيشون مع المسلمين في مدنهم وقراهم، وقد يتجمعون – أحياناً – في أحياء أو قرى خاصة بهم[٣]، وقد عامل الزّنكيون بصورة عامة أهل الذمة معاملة طيبة، وقد نهج الأيّوبيون نهج أسلافهم في التسامح مع أهل الذمة أيضا[٤].

المذاهب الدينية:

إذا استثنينا الفرنج الغزاة، فقد كان معظم سكان بلاد الشام ومصر في هذا العصر من المسلمين السنيين والشيعة، وكانت تعيش إلى جانبهم فئات أخرى من أهل الكتاب كالنصارى واليهود، والذين تشملهم تسمية (أهل الذمة أو المعاهدين). ومعلوم أنّ السلاجقة كانوا يحكمون شمال بلاد الشام في بداية القرن السادس الهجري، ثم حكمها الزّنكيون من بعدهم (٥٢١–٥٧٠هـ/

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: ج٢: ص١٣٨.

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٨٦.

(٣) رحلة ابن جبير: ص٢١٧.

(٤) ضياء الدين بن الأثير: ديوان رسائله: ج٢: ص١٦١.

١١٢٦-١١٧٤م)، وكان السلاجقة والزّنكيون من أهل السنة، فأيّدوا المذاهب السنية بعامة، والمذهب الحنفي بخاصة، إذ كان معظم ملوك الزّنكيين من أتباعه[١]، فاتخذوه المذهب الرسمي للدولة، ويمثل هذا المذهب قاضي القضاة الذي كان يقوم بأمور الديوان والقضاء معاً في العاصمة، وكان له نواب يمثلونه في أرجاء البلاد.

وعندما تولى صلاح الدين الحكم في بلاد الشام سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م)، أقرّ كمال الدين الشهرزوري قاضي القضاة الحنفي على عمله حتى وفاته سنة (٥٧٢هـ/١١٧٦م)، ثم عين قاضياً شافعياً خلفاً له[٢]. ومع أنّ الحكم في بلاد الشام كان بأيدي أهل السنة، إلا أن الشيعة كانوا منتشرين فيها انتشارا كبيرا[٣]، وقد كثرت الفرق الشيعية في هذا القرن كالكيسانية والزيدية والإمامية وكذلك تلك التي تدعي التشيع وتجنح إلى الغلو في عقائدها كالنصيرية والإسحاقية والإسماعيلية[٤]. أمّا مصر فقد حكمها الفاطميون حتى سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م)، وهم من الشيعة الباطنية (الإسماعيلية)، فاتخذوا هذا المذهب الفاطمي مذهباً رسمياً للدولة، فكثر الشيعيون فيها.

وعندما تولى صلاح الدين الوزارة فيها وقوي مركزه ألغى المذهب الفاطمي سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م)[٥]، ونصر المذاهب السنية بعامة، والمذهب الشافعي بخاصة، وهو المذهب الذي اتخذه مذهباً رسمياً للدولة الأيوبية، وأصبح القاضي الشافعي هو الوحيد الموكل بالخطابة والصلاة بالسلطان.

وكان الملوك الأيوبيون جميعا من أتباع المذهب الشافعي، إلاّ الملك المعظم

---

(١) ابن الوردي: تتمة المختصر: ج٢: ص١٢٧.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٤٩- ٥٠.

(٣) رحلة ابن جبير: ص٢٥٢.

(٤) رحلة ابن جبير: ص ٢٥٢، والشهرستاني: الملل والنحل: ص١٤٦-١٩٨.

(٥) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٩٨-٤٩٩.

عيسى، إذ إنّه كان حنفياً[1]، وكثرت المساجد - آنذاك - وكانت ملاذاً للزهاد يقيمون فيها للعبادة، وختم القرآن، وكانت - أيضاً - تفتح طوال النهار لطلاب العلم، ولأداء فرائض الصلاة.

واهتمَّ عدد من السلاطين والأمراء بإقامة الشعائر الدينية، ومحاربة الفجور مثل نور الدين محمود[2]، وصلاح الدين الأيّوبي[3].

وازدهر التصوف في هذا العصر، وقد استمد التصوف عناصره الأولى من الإسلام، وكان يعني في بداية ظهوره الزهد في الحياة، والقناعة بما يسد الرمق، وكبت شهوات النفس، والابتعاد عن مشاغل الدنيا ومباهجها، والانقطاع لعبادة الله، والتفكر في آلائه.

ثم حاول الفاطميون أنْ يطبعوا التصوف بطابعهم، فأدخلوا فيه كثيراً من اعتقاداتهم، فقد ذكر ابن خلدون أنّ كثيرا من عقائد المتصوفين مأخوذة من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم؛ وأنّ المتأخرين منهم آمنوا بالكشف، وآمنوا بالوحدة والحلول[4].

ثم انتشر التصوف السني بعد ازدهار مذاهب الشيعة والفاطمية في بلاد الشام ومصر، ولقي التشجيع من بعض الحكام، إذ بنى نور الدين محمود للمتصوفة من السنيين الربط والخوانق في جميع بلاده، وكان يقربهم من مجالسه، ويتواضع لهم، ويجزل لهم العطاء[5]، وأصبحت ربطهم «قصورا مزخرفة يطّرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر»[6].

---

(١) ابن الوردي: تتمة المختصر: ج٢: ص٢٢٠.

(٢) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق١: ص١١.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٧-١٣.

(٤) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر: المجلد الأول: ص٥٧٥-٥٧٦، وعمر موسى باشا: الأدب في بلاد الشام: ص٩١.

(٥) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق١: ص١٣.

(٦) رحلة ابن جبير: ص٢٥٦.

وتطور التصوف من شكله البسيط إلى أسلوب خاص في الحياة، له أماكنه ونظمه الخاصة، وطرقه المختلفة، وظهرت بعض الطوائف الصوفية المتطرفة في سلوكها وعقائدها وأدىّ هذا التطرف إلى ظهور جماعات أُطلق عليها اسم المجاذيب أو الدراويش أو الحرافيش، واشتهروا بأفعالهم الغريبة، وأزيائهم العجيبة.

ولم يهتم أتباع هذه الفرق المتطرفة كثيراً بالفرائض كالصلاة والصيام والزكاة، ونسبوا لشيوخهم الخوارق والمعجزات وأدخلوا إلى حياتهم تناول الحشيش[1].

الحالة الاقتصادية:

ساءت الأحوال الاقتصادية في مصر والشام في النصف الأول من القرن السادس الهجري، ففي مصر كثرت القلاقل والفتن، واضطرب حبل الأمن، وكثرت الضرائب، وأمّا في بلاد الشام، فقد أدّت الحروب المتصلة بين المسلمين والفرنج، إلى إحلال الخراب بكثير من الحصون والمدن، وإلى إتلاف المحاصيل الزراعية، وإلى ركود التجارة، لما فرض عليها من مكوس فادحة أثقلت كواهل التجار والناس، ولما أصبحت تتعرض له القوافل التجارية من مصاعب وأخطار، فارتفعت الأسعار، وقلّت المواد، وعانى الناس من ذلك كثيراً.

وكان بعض أمراء الشام يدفعون – أحياناً – الإتاوات للفرنج لكف أذاهم عنهم[2]، وكان هؤلاء الأمراء – أحياناً أخرى – يعدون الجيوش لصد الفرنج عند نقضهم العهود والمواثيق، فكانت تكاليف هذه الجيوش، وتلك الإتاوات تقع على

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: ج٢: ص٣٢٩، وعمر موسى باشا: أدب الدول المتتابعة: ص ٨٨–٩٥

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق: ص١٨٣.

كاهل الشعب فتستنزف أمواله وخيراته.

ثم بدأت الحياة الاقتصادية في مصر والشام في الانتعاش في النصف الثاني من ذلك القرن بعدما استطاع نور الدين محمود، ثم صلاح الدين الأيوبي من بعده توحيد بلاد الشام ومصر، فتقدمت الزراعة، ونشطت الصناعات المحلية، وارتقت الفنون الجميلة، وازدهرت التجارة بين الشرق والغرب عبر العراق وبلاد الشام ومصر، ولا سيما بعد أن ألغى عنها نور الدين في بلاد الشام المكوس الفادحة(١)، ثم ألغاها عنها صلاح الدين بعد ذلك في مصر(٢)، وقد تسامح المسلمون مع تجار الفرنج، فأذنوا لهم بدخول البلاد الإسلامية، والمتاجرة مع أهلها، وأذن الفرنج لتجار المسلمين بدخول البلاد التي يحتلونها في بلاد الشام، فاشتغل كثير من أهل الشام ومصر بالتجارة وأثروا من تجارتهم.

الحياة الثقافية:

المساجد والمدارس:

بقيت أحوال بلاد الشام مضطربة منذ بداية الغزو الصليبي حتى آل حكمها إلى الزّنكيين، فاستقرت أحوالها، وبدأت تزدهر، وشجع الزّنكيون العلم والعلماء، وأكثروا من بناء المدارس والمساجد، فكان نور الدين يرسل ما يصله من هدايا الملوك إلى مجلس القاضي لبيعها وإنفاق ثمنها في عمارة المساجد المهجورة(٣)، وكان يهتم بإنشاء المدارس، فاستدعى من سنجار العالم والفقيه المشهور شرف الدين عبدالله بن أبي عصرون (-٥٨٥هـ/ ١١٨٩م)، وبنى له المدارس بحلب وحماة وحمص وبعلبك(٤)، ولم يكتفِ ابن أبي عصرون بما

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص٢٤١.

(٢) المصدر السابق: ج١: ق٢: ص٥٢٢.

(٣) المصدر السابق: ج١: ق١: ص٢٦.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس: ج١: ص٤٠١.

شيده نور الدين من المدارس، فشيد مدرستين أخريين: إحداهما بحلب، والثانية بدمشق(١).

وكان نور الدين محمود أوّل من أنشأ مدارس خاصة بالحديث الشريف، وسميت باسمه(٢)، واهتمَّ الأيوبيون من بعده بدور العلم، فقد رأى ابن جبير في دمشق عندما زارها عشرين مدرسة(٣)، منها ما هو للحنفية، ومنها ما هو للشافعية(٤)، ومنها ما هو للمالكية، ومنها ما هو للحنابلة(٥)، ومنها ما هو للشافعية والحنفية معاً، ومنها ما هو للحديث بخاصة(٦)، ومن المدارس الكثيرة التي أنشأها صلاح الدين في بلاد الشام المدرسة الصلاحية في القدس(٧).

وسار خلفاء صلاح الدين من بعده على نهجه، فأسس الملك العادل المدارس الكثيرة، منها المدرسة العادلية الكبرى، والعادلية الصغرى(٨)، وانشأ الملك المعظم عيسى للحنفية المدرسة المعظمية(٩).

ولم يقتصر الاهتمام ببناء المدارس على أُولئك السلاطين والملوك، بل أسهمت نساؤهم في ذلك، فقد أنشأت الخاتون عصمة الدين زوج نور الدين محمود ثم زوج صلاح الدين من بعده، المدرسة الخاتونية الجوانية، وكانت خاصة

---

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس: جـ١: ص٤٠١.

(٢) المصدر السابق: ج١: ص٩٩-١٠٠.

(٣) رحلة ابن جبير: ص٢٥٥.

(٤) أبو شامة: ذيل الروضتين: ص١٩٨.

(٥) أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام: ص٦٦-٦٧.

(٦) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص٢٣.

(٧) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٤٠٧-٤٠٨.

(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس: ج١: ص٣٥٩-٣٧٣.

(٩) المصدر السابق: ج١: ص٥٨٥.

بالحنفية[١]، وبنت ست الشام أخت صلاح الدين مدرستين للشافعية[٢].

ومن العلماء الذين أسهموا في بناء المدارس، زكي الدين ابن أبي رواحة الحموي التاجر المعروف بابن رواحة (-٦٢٢هـ) الذي أنشأ مدرستين للشافعية إحداهما في دمشق، والأخرى في حلب[٣].

وعندما خلف الأيوبيون الفاطميين في حكم مصر، عمل صلاح الدين على القضاء على المذهب الفاطمي والتمكين للمذهب السني فيها عن طريق الإكثار من المدارس السنية، فعندما تولى وزارة مصر، أقام في القاهرة المدرسة الناصرية لفقهاء الشافعية[٤]، والمدرسة القمحية لفقهاء المالكية سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م)[٥].

وأسس القاضي الفاضل سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية معا[٦].

ولم تكن جوامع القاهرة أقلّ شأناً من مدارسها في مجال نشر الثقافة والعلم، إذ كانت عامرة بحلقات العلم، ومن أشهر جوامع القاهرة - آنذاك - جامع عمرو بن العاص[٧]، والجامع الأزهر[٨] والمشهد الحسيني[٩]، والجامع الأقمر[١٠].

وكانت الإسكندرية مركزاً مهماً من مراكز الثقافة والعلم - آنذاك - إذ كان

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس: ج١: ص٥٠٧.

(٢) المصدر السابق: ج١: ص٣٠٢-٣٠٣.

(٣) المصدر السابق: ج١: ص٢٦٥-٢٦٧.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: ج٢: ص٣٦٣.

(٥) المصدر السابق: ج٢: ص٣٦٤.

(٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ج٢: ص٣٦٦-٣٦٧.

(٧) المصدر السابق: ج٢: ص٢٤٦-٢٥٦.

(٨) المصدر السابق: ج٢: ص٢٧٣.

(٩) أحمد بدوي: الحياة العقلية: ص١٨-١٩.

(١٠) المقريزي: المواعظ والاعتبار: ج٢: ص٢٩٠-٢٩٣.

فيها عدد من الجوامع أهمها: جامع العطارين الذي ظل يؤدي رسالته في نشر العلم طوال عصر الحروب الصليبية(١).

وكانت فيها مدارس عديدة منها المدرسة السلفية للشافعية(٢)، ثم أكثر صلاح الدين من بناء المدارس في الاسكندرية، وفتح أبوابها لأبناء المدينة ولغيرهم، وألحق بهذه المدارس ما يشبه المدن الجامعية للطلاب الوافدين من خارج الاسكندرية، وقد اشتملت على مساكن للطلبة، وحمامات ومارستان لعلاجهم(٣).

وامتاز هذا العصر بظهور مدارس للطب منها المدرسة الدخوارية قبلي الجامع الأموي التي أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن حامد المعروف بالدخوار سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م)(٤).

وكانت المدارس الطبية تمد المارستانات بمن يتخرج من طلبتها، وكان لبعض الأطباء دكاكين يستقبلون فيها المرضى، فقد كان للطبيب أبي جعفر عمر ابن علي بن البذوخ «دكان عطر باللبادين يجلس فيها، ويعالج من يأتي إليه، أو يستوصف منه، وكان يهيئ عنده أدوية كثيرة مركبة.... يبيع منها»(٥).

والمارستان له« قوَمَة بأيديهم الأزمّة المحتوية على أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم»(٦). وكانت للمدارس - آنذاك -

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٥: ص١١٩.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج١: ص١٠٥-١٠٧.

(٣) رحلة ابن جبير: ص١٥-١٦.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس: ج٢: ص١٢٧-١٣٣.

(٥) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء: ص٦٢٨.

(٦) رحلة ابن جبير: ص٢٥٥.

أنظمة تتعلق بالدراسة والطلاب، وهيئة التدريس، وكان السلطان أو من ينوب عنه يعين أحد العلماء أو الفقهاء رئيساً للمدرسة، وكان - في الأغلب - من المدرسين القدماء، أو العلماء، أو الفقهاء المعروفين.

ثقافة العصر :

تنوعت ألوان الثقافة في هذا العصر فمنها العلوم الدينية، وعلوم اللغة العربية، والتاريخ والجغرافية، والفلك، والطب، والرياضيات، والكيمياء وغيرها.

العلوم الدينية :

لقيت العلوم الدينية اهتماما كبيرا في هذا العصر، فكان القرآن العظيم موضع عناية فائقة، فكان الصبية يحفظونه في المساجد(١)، والسلاطين يحرصون على سماعه، إذ كان صلاح الدين يستقرئ من يحضره بالليل الحزبين والثلاثة والأربعة وهو يسمع(٢)، واعتنى العلماء بتفسير القرآن الكريم، ولم يكن تفسيرهم تقليدا للمفسرين السابقين، بل كان يغايره قليلا أو كثيرا تبعاً للمفسرين أنفسهم من ناحية، وتبعاً لمذاهبهم الفقهية من ناحية أخرى، وممن اشتهر من المفسرين في هذا العصر: سُليم بن أيوب (-٥٤٧هـ/١١٥٢م) الذي صنف مجلدا كبيراً في تفسير القرآن الكريم(٣)، ومحمد بن ظفر (-٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) الذي صنف تفسيره« ينبوع الحياة »(٤)، وعز الدين بن عبد السلام الذي صنَّفَ «التفسير» في مجلد مختصر، وسبط ابن الجوزي (-٦٥٤هـ/

---

(١) رحلة ابن جبير: ص٢٤٤-٢٤٥.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية : ص٩.

(٣) محمد كرد علي: خطط الشام: ج٤ : ص٣٦.

(٤) ابن الوردي: تتمة المختصر: ج٢ : ص١٢٠.

١٢٥٦م)[١] الذي صنَّفَ تفسيره «معادن الإبريز» في تسعة وعشرين مجلداً، وغيرهم كثيرون.

واهتم علماء مصر والشام بالقراءات القرآنية فتناولوا القصيدتين الشاطبيتين في القراءات[٢] وهما: «حرز الأماني» و«الرائية» بالشرح، وممن شرحهما: علم الدين السخاوي (-٦٤٣هـ/١٢٤٥م)[٣]، وأبو شامة المقدسي.

ولقي الحديث الشريف عناية كبيرة لأنه يلي القرآن الكريم من حيث الأهمية، فقد أنشأ نور الدين محمود أول مدرسة للحديث[٤]، وأُثِر عنه أنّه سمع الحديث وأسمعه طلبا للأجر[٥].

وقد أحبَّ السلاطين والناس مصاحبة المحدثين ومجالستهم، والاستماع إليهم، فقد أُثِرَ عن صلاح الدين أنّه كان يقرأ الحديث بنفسه، ويحضر بعض كتب الحديث في خلوته ويطالعها[٦].

وكثر المحدّثون في هذا العصر ومنهم الحافظ أبو القاسم علي بن عساكر

---

(١) هو يوسف بن قزأ وغلي، وجده لأمه الشيخ جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي الواعظ المشهور ببغداد، ولد ببغداد سنة (٥٨٢هـ)، ونشأ وترعرع في كنف جده، ثم اشتغل بالوعظ في بغداد، ثم انتقل إلى الموصل ثم إلى حران وحلب وبيت المقدس، ودمشق، وكانت مجالس وعظه بدمشق مشهورة، ومواعظه في الحث على الجهاد مؤثرة، وله كتب في التفسير، ومجلد في مناقب أبي حنيفة، وكتاب «منتهى السول في مناقب الرسول» (ﷺ) وكتاب «مرآة الزمان»، في التاريخ وغيرها وقد توفي في سنة (٦٥٤هـ) (أبو شامة المقدسي: ذيل الروضتين: ص٤٨ - ٤٩، وابن السبكي: طبقات الشافعية: ج٩: ص٢٣٩).

(٢) نظمهما القاسم بن فيرة الشاطبي الأندلسي المقرىء الضرير الذي ذاع صيته في الإقراء ووفد على مصر ودرس فيها حتى آلت إليه رئاسة الإقراء، وقد توفي سنة ٥٩٠هـ (السيوطي: حسن المحاضرة: ج١: ص٢١٢).

(٣) ابن الوردي: تتمة المختصر: ج٢: ص٢٥٦.

(٤) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق١: ص٢٣.

(٥) المصدر السابق: ج١: ق١: ص١٤.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٩-١٠.

الدمشقي (-٥٧١هـ/ ١١٧٥م)[١]، وأبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفي (-٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)[٢]، والقطب اليونيني[٣].

وعني العلماء بالفقه، وكانت للفقه منزلة رفيعة لدى السلاطين والأمراء، فألف عدد من الفقهاء في فقه المذاهب الأربعة، وألّف بعضهم في الفقه في مذهب واحد كما قاموا بشرح الأصول والمتون القديمة وفروعها، ثم وقفوا عند الشروح نفسها فوضحوها وذيّلوها بما فات الشرّاح من مسائل وتعليقات اضطرتهم إليها الظروف الجديدة، ومن مشاهير هؤلاء الأئمة المجتهدين: كمال الدين محمد بن عبدالله بن قاسم الشهرزوري[٤]، وقطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري(-٥٧٨هـ/ ١١٨٢م)[٥] والعز بن عبد السلام[٦] وغيرهم كثيرون. وقد صنَّفَ معظمهم مؤلفات عديدة في الفقه.

العلوم التاريخية والاجتماعية:

ازدهرت العلوم التاريخية والاجتماعية - آنذاك - فقد اهتمَّ بالتاريخ جماعة من العلماء، وتعددت ألوانه، فكان منها التاريخ العام، والتاريخ الخاص بالبلدان أو السير أو الطبقات أو الوفيات.

وقد انصرف بعض المؤرخين إلى التاريخ العام، فكانوا يؤرخون الأخبار حسب توالي السنين، ومنهم عبد الرحمن بن الجوزي (-٥٩٨هـ/ ١٢٠١م[٧]، صاحب «المنتظم»، وعز الدين علي بن الأثير (-٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)[٨] مصنف كتاب «الكامل في

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٣: ص٣٠٩-٣١١.

(٢) المصدر السابق: ج١: ص١٠٥-١٠٧.

(٣) المصدر السابق: ج٤: ص١٢٥.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٤: ص٢٤١-٢٤٥.

(٥) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق١: ص٢٧.

(٦) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى: ج٨: ص٢٠٩-٢٥٥.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٣: ص١٤٠-١٤٢.

(٨) المصدر السابق: ج٣: ص٣٤٨-٣٥٠.

التاريخ»، وسبط ابن الجوزي (-٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) مؤلف «مرآة الزمان» وغيرهم.

وانصرف آخرون إلى التاريخ الخاص: فصنف العماد الكاتب الأصفهاني (-٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)[١] كتابين أحدهما «الفتح القسي في الفتح القدسي»[٢] تحدث فيه عن حروب صلاح الدين وسيرته، واستهله بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة هجرية أيْ السنة التي فتح فيها صلاح الدين بيت المقدس وأنهاه سنة (٥٨٩هـ/ ١١٩٤م)، والثاني «البرق الشامي» وقد تحدث فيه عن حروب صلاح الدين من سنة (٥٦٣هـ/ ١١٦٧م) حتى وفاته[٣].

وألّف أبو شامة المقدسي «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النّورية والصلاحية»، وصنف بعض المؤرخين تراجم لأعيان مدينة أو قطر في عصر معين مثل أبي القاسم علي بن عساكر الذي ألّف «تاريخ دمشق» وهو كتاب جامع لتراجم أعيان دمشق مرتب حسب الحروف الهجائية.

وألف ابن أبي طيّ (-٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) كتاب «طبقات العلماء» وصنّفَ ابن أبي أصيبعة (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء».

واختصر أسامة بن منقذ (-٥٨٤هـ/١١٨٨م) كتاب «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» لعبد الرحمن بن الجوزي[٤] اذ جرده من الأسانيد، وسمّاه «مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب»[٥]، وكتاب «مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي - أيضاً - وسمّاه

---

(١) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٩: ص١١-٢٨.

(٢) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٩: ص١٩.

(٣) المصدر السابق: ج١٩: ص١٩.

(٤) هو الإمام الحافظ أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي: ولد سنة ٥١٠هـ، وكان من أبرز علماء عصره، وله مؤلفات كثيره من أهمها: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، وتوفي سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) (ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص٢٧٦، وابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٣: ص١٤٠-١٤٢).

(٥) أسامة بن منقذ: «مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» لعبد الرحمن بن علي الجوزي (مخطوط).

« مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز »[١].

علم الفلك وتقاويم البلدان

واهتم المسلمون بعلم الفلك، وبتقاويم البلدان والأقاليم، فقد روى أُسامة بن منقذ أنّ لوالده معرفة بعلم الفلك، وأنّه كان يحثه على معرفة منازل النجوم وأشكالها، ويريه إياها، ويعرفه بأسمائها ويأمره بمعرفه « ما يطلع منها وما يغرب »[٢].

ومن الفلكيين – آنذاك – ابن ياسين الحلبي (–٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م)، وكان ضليعا في علم الأزياج، وعلم الدين قيصر (–٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م) الذي استدعاه صاحب حماة الملك المظفر تقي الدين إليها، فبنى له أبراجا فلكية، وأقام فيها طواحين مائية[٣].

ومن أشهر مؤلفات العصر في التعريف بالمدن والمواقع « معجم البلدان » لياقوت الحموي (–٦٢٦هـ/١٢٢٨م) وقد رتبه حسب الحروف الهجائية « ومن غير نظر إلى أصول الكلمة وزوائدها، لأنّ جميع ما يرد إنّما هي أعلام لمسميات مفردة، وأكثرها أعجمية ومرتجلة لا مساغ للاشتقاق فيها »[٤].

وكثرت الرحلات في المشرق والمغرب، وألّف بعض الرحّالة كتباً عرضوا فيها جوانب من حيواتهم، ووصفوا البلاد التي زاروها، وصوروا ما حصل لهم فيها، ومن هذه المؤلفات « رحلة ابن جبير » (–٦١٤هـ/ ١٢١٧م) « والإفادة والاعتبار ». لعبد اللطيف البغدادي (–٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)[٥].

---

(١) أسامة بن منقذ: « مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز » لعبد الرحمن بن علي الجوزي (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٣٣٤: تاريخ).

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٥٦.

(٣) ابن الوردي: تتمة المختصر: ج٢: ص٢٥٤.

(٤) ياقوت: معجم البلدان ج١: ص١.

(٥) هو موفق الدين أبو محمد عبداللطيف بن يوسف بن علي البغدادي، ولد في بغداد سنة (٥٥٧هـ/١١٦٢م)، وفيها نشأ وتلقى العلم، ثم تنقل في البلاد الإسلامية، واشتهر بالطب والكيمياء، والفلسفة وغير ذلك، وله مؤلفات كثيرة منها: « العمدة في أصول السياسة » وكتاب « الجلي في الحساب الهندي » و « قوانين البلاغة »: و« الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » (ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء: ص٦٨٣–٦٩٦، وفوات الوفيات: ج٢: ص٣٨٥–٣٨٨).

العلوم العلمية (أو التطبيقية):

ازدهرت في هذا العصر العلوم المتصلة بحياة الإنسان، ومنها: الطب، وصناعة العقاقير، إذ ظهرت مدارس طبية بجانب البيمارستانات العامة[١]، واشتهر من الأطباء: ابن التلميذ أبو الحسن هبة الله بن أبي الغنائم صاعد النصراني (-٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)[٢]، وعمر بن علي بن البذوخ الدمشقي (-٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)[٣] والموفق أسعد بن الياس بن جرجس المطران (-٥٨٧هـ/ ١١٩٢م)[٤] وضياء الدين عبدالله بن أحمد بن البيطار (-٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) وابن أبي أُصيبعة (-٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) صاحب كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء». وكان علم العقاقير مرتبطا بالطب، ولم ينفصل عنه الا نادراً.

الفلسفة والمنطق:

عزف كثير من العلماء عن الاشتغال بالعلوم العقلية من فلسفة ومنطق وغيرهما، لأنها لقيت مقاومة من الفقهاء، وإعراضا من السلاطين في معظم الأحيان، ولا سيما بعد مقتل الفيلسوف السهروردي بحلب سنة (٥٨٧هـ/ ١١٩١م)[٥] على يدي الملك الظاهر غازي بطلب من صلاح الدين الأيوبي[٦]. ومن حكماء هذا العصر نجم الدين موسى بن محمد القمراوي (-٦٥١هـ)[٧]، وشرف الدين المتّاني اللّذان اشتهرا بالحكمة والشريعة[٨].

---

(١) انظر أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية: ص٣٠٧-٣١٧.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٦: ص٦٩-٧٧.

(٣) ابن أبي أُصيبعة: طبقات الأطباء. ص٦٢٨-٦٣٠.

(٤) المصدر السابق: ص٦٥١-٦٥٩.

(٥) المصدر السابق: ص٦٠١-٦٠٢.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٠، وابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء: ص٦٤١-٦٤٦.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٣: ص٣٣٤.

(٨) كرد علي: خطط الشام: ج٤: ص٤٢.

علوم اللغة العربية:

اهتمَّ العلماء بدراسة علوم اللغة العربية، لأنها الوسيلة لفهم القرآن الكريم ودراسته، فألّفوا في اللغة والمعاجم والنحو والصرف والبلاغة والعروض، فقد ألف ابن مالك «الاعتضاد في الظاء والضاد»[١]، وابن يعيش «شرح المفصل للزمخشري»[٢] وغيرهما كثيرون، وظهر في هذا العصر نحاة كثيرون منهم: أبوعبدالله الطليطلي الذي كان في النحو سيبويه زمانه[٣]، ويعيش بن علي الحلبي (-٥٤٣هـ/ ١١٤٧م) المعروف بابن الصائغ[٤]، وأبو نزار الحسن بن أبي الحسن الصافي (-٥٦٨هـ/ ١١٧٢م)، وكان معجباً بنفسه يغضب ممن يخاطبه بغير لقبه «ملك النحاة»[٥]، وعلم الدين بن علي السخاوي (-٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) الذي صنف «المفضل في شرح المفصل» و«سفر العادة وسفير الإفادة»[٦]، وابن مالك الذي نظم أرجوزته الكبرى التي سماها «الكافية الشافية» وهي في ثلاثة آلاف بيت، ثم أرجوزته الصغرى التي كانت اختصارا لسابقتها، وهي في ألف بيت سماها «الخلاصة الألفية»[٧].

أما في البلاغة والنقد فقد ألّف أسامة بن منقذ كتابه «البديع في نقد الشعر» معتمدا في ذلك على كتب سابقيه في البلاغة والنقد معا، وصنف ضياء الدين ابن الأثير (-٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) كتاب« المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، وألف عبد العظيم بن أبي الإصبع المصري (-٦٥٤هـ/ ١٢٥٧م) كتاب «بدائع

---

(١) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات: ج٣: ص٤٠٨.

(٢) المصدر السابق: ج٣: ص٢٩٤.

(٣) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٢٠٨-٢٠٩.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٧: ص٢٤٦-٢٥٣.

(٥) ياقوت الحموي: معجم الأدباء: ج٨: ص١٢٢-١٣٩، وابن الوردي: تتمة المختصر: ج٢: ص١٢٥.

(٦) ابن الوردي: تتمة المختصر: ج٢: ص٢٥٦.

(٧) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها: ج٣: ص٤٠٨، وابن الوردي: تتمة المختصر: ج٢: ص٣١٨.

القرآن« ، وصنَّفَ الإمام العز بن عبد السلام كتاب «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» أو «مجاز القرآن»، وتناول فيه إعجاز القرآن الكريم من جهة اختصاره الكلام، وإفادته للمعنى المقصود بأقصر عبارة وأدقها، وعدد فيه الحذف في القرآن الكريم وأنواعه.

الحياة الادبية:

شهد هذا العصر حركة أدبية واسعة شملت النثر والشعر معاً، إذ تهيأت أسباب كثيرة لازدهار الأدب من أهمها: تشجيع السلاطين والملوك والأمراء للأدباء بفتح أبوابهم لهم، وإجزاء العطاء لهم، واستمرار الحروب الصليبية، وما ترتب عليها من حوادث جسيمة، حفزت الأدباء إلى التعبير عمّا يجول في أذهانهم من مواضيع وأفكار، وعما يجيش في صدورهم من انفعالات ومشاعر.

وقد ازدهر الشعر في هذا العصر، وشاع نظمه بين فئات الأمة كلها، فقد نظمه كثير من أمراء بني منقذ الشيزريين[١] وأشهرهم أسامة بن منقذ الذي كان صلاح الدين مشغوفاً بديوانه[٢]، ونظمه كذلك بعض من ملوك الأيوبيين وأمرائهم مثل عز الدين فروخشاه (-٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) وله أشعار كثيرة[٣]، وتاج الملوك بوري بن أيوب (-٥٧٩هـ/ ١١٨٣م) وله ديوان شعر مطبوع[٤]، والملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة (-٥٨٧هـ)[٥] والملك الأمجد

---

(١) العماد الكاتب: خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٤٩٧-٥٧٢، وياقوت: معجم الأدباء: ج٥: ص٢٢٦-٢٤٥، ومصطفى محمود زايد: أسامة بن منقذ: حياته وشعره (الأسرة الشاعرة): ص٣٧-٣٩. (رسالة ماجستير).

(٢) الفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص٨٥، ١١١.

(٣) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج٢: ص٣٣-٣٥.

(٤) تاج الملوك بوري بن أيوب: الديوان (حققه الدكتور محمد عبدالحليم سالم: طبعة القاهرة: سنة ١٩٨٨).

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٣: ص٤٥٦-٤٥٨.

بهرام شاه صاحب بعلبك (-٦٢٨هـ/ ١٢٣١م)[١]، وله ديوان شعر مطبوع[٢]، وغيرهم كثير[٣].

وممن نظم الشعر من المؤرخين ابن القلانسي (-٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)[٤]، وابن عساكر (-٥٧١هـ/ ١١٧٥م)[٥]، كما قرض الشعر أيضاً القضاة[٦]، والفقهاء[٧]، والأطباء[٨]، والعلماء[٩]، وغيرهم. ومن أشهر شعراء هذا العصر ابن قسيم الحموي (-٥٤٢هـ/١١٤٦م)[١٠]، وابن منير الطرابلسي (-٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)[١١]،وابن القيسراني (- ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م)[١٢]، وعرقلة الدمشقي (-٥٦٧هـ/ ١١٧١م)[١٣]، وعمارة اليمني (- ٥٦٩هـ/١١٧٣م)[١٤]، وأسامة ابن منقذ (- ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)[١٥]، والعماد الكاتب الأصفهاني (- ٥٩٧هـ/

---

(١) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات: ج١: ص٢٢٦-٢٢٨.

(٢) حققه ناظم رشيد وطبع في بغداد (ديوان الملك الأمجد بهرام شاه الأيوبي).

(٣) ناظم رشيد: الأدب عند بني أيوب: ص٣٥ (مجلة المورد: بغداد: المجلد الخامس: العدد الثالث: خريف سنة ١٩٧٦م).

(٤) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٠: ص٢٧٨-٢٨٠.

(٥) المصدر السابق: ج١٣: ص٧٣-٨٧.

(٦) العماد الكاتب: الخريدة: قسم شعراء الشام: ج٢: ص٣٠٩-٣٣٩.

(٧) العماد الكاتب: الخريدة: قسم شعراء الشام: ج٢: ص٢٤٢، ٢٥٤ وغيرهما.

(٨) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق١: ص١٣٩-١٤٠.

(٩) العماد الكاتب: الخريدة: قسم شعراء الشام: ج١: ص٢٧٥-٢٧٧.

(١٠) المصدر السابق: قسم شعراء الشام: ج١: ص٤٣٣-٤٧٩.

(١١) المصدر السابق: ج١: ص٧٦-٩٥.

(١٢) المصدر السابق: ج١: ص٩٦-١٠٦.

(١٣) المصدر السابق: قسم شعراء الشام: ج١: ص١٧٨-٢٢٩.

(١٤) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٦٦-٥٧٧ وغيرها، والعماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج٣: ص١٠١-١٤١.

(١٥) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٤٩٨، وياقوت: معجم الأدباء: ج٥: ص١٨٨-٢٤٥.

١٢٠٠م)[١]، وابن الساعاتي (- ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م)[٢]، وابن سناء الملك (-٦٠٨هـ/ ١٢١١م)[٣]، والشهاب الشاغوري (- ٦١٥هـ/ ١٢١٨م)[٤]، وعلي بن النبيه (- ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م)[٥]، وابن عنين (-٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)[٦]، وعمر بن الفارض (- ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)[٧] والبهاء زهير (-٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)[٨]، والشرف الأنصاري (٥٨٦- ٦٦٢هـ/ ١١٩٠- ١٢٦٤م)[٩].

وقد ظلت الموضوعات التقليدية في هذا العصر مجالاً لنظم الشعر، إذ بقي الشعراء ينظمون في الفخر والحماسة[١٠]، وشكوى الفراق، ووصف الحنين، والاشتياق[١١]، والعتاب[١٢]، والاعتذار[١٣]، والدعابة[١٤]، والألغاز[١٥]، ووصف الخمر ومجالس الشراب[١٦]، والزهد والمواعظ[١٧]، ووصف الكبر

(١) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٩: ص١١-٢٨.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء: ص٦٦١-٦٦٢.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٩: ص٢٦٥-٢٧١.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٤: ص٢٤-٢٦.

(٥) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات: ج٣: ص٣٠، ٦٦، ج٢: ص١٩٦، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٢٤٣.

(٦) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٩: ص٨١-٩٢.

(٧) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب: ج٥: ص١٤٩-١٥٠.

(٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٥: ص٣٢٠، ج٧: ص٥٨، ٦٨، ٣٣٨، ٣٦٢-٣٦٣ وغيرها.

(٩) أبو شامة: ذيل الروضتين: ص٢٣١، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٧: ص٢١٤-٢١٥.

(١٠) أسامة بن منقذ: الديوان: ص٢٥٠-٢٥٧، ٢٥٨-٢٧٩.

(١١) المصدر السابق: ١٠٤-١٥٨.

(١٢) المصدر السابق: ص١٥٩-٢٠٢.

(١٣) المصدر السابق: ١٧٩-١٨٣ وغيرها.

(١٤) المصدر السابق: ص ٢٠٨-٢١٠.

(١٥) ابن عنين: الديوان: ص١٤٩-١٧٨.

(١٦) فتيان الشاغوري: الديوان: ص٣٩-٤٠، ٨٨-٩٤ وغيرها.

(١٧) أسامة بن منقذ: الديوان: ص٣٢٦-٣٤٣.

والمشيب[١]، والهجاء وثلب الأعراض[٢]، والتصوف[٣].

وشاع الغزل بالمذكر والمؤنث، لكن معظم الشعراء عزفوا عن التغزل بالعنصر العربي، وأخذوا يتغزلون بالعناصر الأخرى كالترك والأكراد والفرنج وغيرهم[٤]. ومع ذلك فإنهم «وسموا هذه الأغراض بمياسم شخصياتهم وبيئاتهم، وبذلوا جهودا كبيرة للتجديد فيها»[٥].

وقد اهتم الشعراء كثيرا بشعر الجهاد: فوصفوا ما حل بالمسلمين في بلاد الشام من هزائم ونكبات وما عانوه من تقتيل وأسر وتشريد على أيدي الصليبيين في بداية الحروب الصليبية، وأكثروا من التفجع والبكاء على المدن والمقدسات التي سقطت في أيدي الأعداء.

وعندما انتقل زمام المبادرة من أيدي الفرنج إلى أيدي المسلمين، وصف الشعراء الحوادث الكبرى، وخلدوا انتصارات أبطال المسلمين مثل عماد الدين زنكي[٦]، ونور الدين محمود[٧]، وصلاح الدين الأيوبي[٨]، وخلفائه على

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ: ص٣١٤ – ٣٢٥، وأسامة بن منقذ: العصا: ٤٠٣ – ٤٠٦، ٤١٩، ٤٣٢–٤٣٣ وغيرها.

(٢) ياقوت: معجم الأدباء: ج١٩: ص٨٦–٨٨، وابن عنين: الديوان: ص١٧٩–٢٣٨.

(٣) انظر ديوان ابن الفارض: ص ٢٣–٦٨، ٨٢–٨٤، ٨٨–٩١ وغيرها.

(٤) ابن القيسراني: مخطوطة الديوان: ص٦٢، ٦٦–٦٨، وعادل جابر: شعر ابن القيسراني: ص٤٩٠ – ٤٩٢ (رسالة دكتوراة)، وابن الدهان: الديوان: ص١٤٥، والعرقلة الكلبي: الديوان: ص١٠١، وابن الساعاتي: الديوان: ج١: ص٦١، وفتيان الشاغوري: الديوان: ص٥٤٠.

(٥) شفيق الرقب: اتجاهات الشعر في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: ص٣٧٥.

(٦) أبو شامة المقدسي: ج١: ق١: ص٨٢–٨٤، ٨٨–٨٩، ٩٥، ٩٧–١٠٣.

(٧) المصدر السابق: ج١: ق١: ص٤٤ – ٥٨، ١٤٥ – ١٤٩، ١٥٢ – ١٩٤، ١٩٦ – ٢٠٠، ومحمود السرطاوي: نور الدين زنكي في الأدب العربي: ص١٣٥–١٦٧ (رسالة ماجستير).

(٨) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج٢: ص٨٣ – ٨٥، ٨٨، ١٠١ –١٠٧، ١١٥ – ١١٩، وعوني خليل محمود صابر: صلاح الدين الأيوبي في الشعر العربي في فترة الحروب الصليبية: ص١٨٦ – ٢٤٥ (رسالة ماجستير).

الفرنج الغزاة، ولا سيما في معركة حطين[١]، وفي فتح بيت المقدس[٢]، ورثوا هؤلاء الأبطال عند وفاتهم[٣]، فخرج معظم المديح والرثاء عن النطاق التقليدي الخاص إلى العام، وأدى الشعراء بذلك دوراً وظيفياً مهماً في مواجهة الخطر الصليبي إذ أسهموا بقصائدهم تلك مساهمة فعالة في إذكاء جذوة الحماسة في نفوس المسلمين وحثهم على مواصلة الجهاد لتحرير ما اغتصب من أرضهم ومقدساتهم.

وقد استمد شعراء هذا العصر معاني جديدة من الحروب وأدواتها ومتطلباتها، ومن الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة – آنذاك –، ولكن معظم معانيهم ظلت مستمدة من معاني الشعراء السابقين أو مولدة منها[٤].

وحاول الشعراء – أحياناً – الإغراب في التشبيهات والاستعارات، وتنافسوا في ابتكار الصور البيانية، ومع ذلك ظلت معظم صورهم تقليدية، ومستمدة من صور السابقين وخيالاتهم[٥].

وشاع في الشعر استخدام المصطلحات العلمية، كمصطلحات النحويين والعروضيين والصوفيين والفلاسفة، والمشتغلين بالطب والطبيعة والنجوم والفلك والرياضيات وما إليها[٦].

وشاع – أيضاً – استعمال الألفاظ المعربة كالألفاظ الفارسية والتركية

---

(١) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج٢: ص٨٢–٨٥، ٨٩.

(٢) المصدر السابق: ج٢: ص٨٨، ١٠١–١٠٧، ١١٥–١١٩.

(٣) المصدر السابق: ج١: ق٢: ص٥٨١–٥٨٨، ج٢: ص٢١٥–٢١٦.

(٤) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٩٧–٩٨، ١١٣–١١٤ وغيرها. ومصطفى محمود زايد: أسامة بن منقذ: حياته وشعره: ص٣٠، ١٢٦، وديوان أسامة بن منقذ: ص٢٤٧.

(٥) مصطفى محمود زايد: أسامة بن منقذ: حياته وشعره: ص٣٠.

(٦) العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٩٠، ١٠٩–١١١ وغيرها.

والإفرنجية وغيرها[1] كما لم يتحرج بعض الشعراء من استخدام الألفاظ والعبارات العامية[2].

وانتهج الشعراء في هذا العصر مذهبين في الشعر هما: المذهب التقليدي، ومذهب التصنع والبديع، وقد نحا أنصار المذهب التقليدي منحى الشعر القديم، فالهيكل العام للقصيدة ظل مرعيًا في جلّ شعرهم، إذ حافظوا على العمود الشعري للقصيدة العربية، وتأثروا كثيرا بمعاني القدماء وصورهم، وتعبدوا أساليبهم، ولم يهملوا المحسنات البديعية ولكنهم لم يسرفوا في استعمالها، ومن أشهر أتباع هذا المذهب عمارة اليمني، وأسامة بن منقذ[3].

وأمّا أنصار مذهب التصنع والبديع، فقد اتخذوا من الإسراف في استعمال المحسنات البديعية بعامة، والجناس والطباق بخاصة مذهباً لهم في شعرهم، حتى كادت المفردات اللغوية أن تولد الافكار عند بعضهم بدلاً من ان تستدعي الأفكار الكلمات المعبرة عنها[4]، ومن شعراء هذا المذهب: ابن منير الطرابلسي، وابن القيسراني والعماد الكاتب الأصفهاني.

---

(١) العماد الكاتب: قسم شعراء الشام: ج١: ص١٩٠، ٢١٠، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٨٥ وغيرها.

(٢) ابن عساكر: التاريخ الكبير: ج٢: ص٩٧، والعماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١ ص٢٢٦.

(٣) انظر مصطفى محمود زايد: أسامة بن منقذ: حياته وشعره: ص١٢٥-١٢٨.

(٤) المصدر السابق: ص٣١.

obeikandl.com

موضوعات النثر الفني

obeikandl.com

obeikandl.com

النثر الفني

مدخل:

ستقتصر هذه الدراسة على البحث في النثر الفني، وهو – كما يقول بعض المحدثين – الكلام «الذي لا يقصد به نقل الأفكار والمعاني فقط، وإنما تحقيق اللذة الفنية المعتمدة على بعض عناصر الشعر من إيقاع معين، ولغة مجازية مثيرة للخيال»[1]. وهو كذلك الكلام الذي يحتوي على الأفكار المنظمة تنظيماً حسناً، والمعروضة عرضاً جذاباً، إذ إنه حسن الصياغة، جيّد السبك، مراعى فيه قواعد اللغة وضوابطها.

والنثر الفني ينقسم بدوره الى خطابة وعمادها اللسان، وكتابة فنية عمادها القلم. وقد يقترب النثر الفني من الشعر فيسمى عندئذ النثر الشعري الذي يتميز ببراعة السبك، وكثرة المحسنات اللفظية والمجازات والأوزان الإيقاعية الشائعة في الشعر، ومن الأمثلة القديمة لهذا النثر مقامات بديع الزمان الهمذاني (–٣٩٨هـ)[2]، التي يؤدي فيها السجع دوراً مهماً في إضفاء الشاعرية على النثر الفني[3].

وقد ازدهر النثرالفني في هذا العصر وكثر قائلوه، ومع أنه قد ضاع كثير منه إلاّ أنه قد بقي منه قدر لا بأس به محفوظاً في مجموعات، أو منثوراً في المصادر والمراجع المختلفة.

وقد تناول الناثرون فيه معظم ما يتصل بحياتهم ويعبر عن مشاعرهم ومشاعر

---

(١) مجدي وهبه وزميله: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: ص٢١٩: مادة الناثر.

(٢) أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني: ولد في همذان ثم انتقل إلى هراة وسكنها ثم انتقل إلى نيسابور ومنها سافر إلى بلدان عديدة، وله ديوان شعر، ورسائل، وهو صاحب المقامات المشهورة، وتوفي في هراة مسموماً سنة ٣٩٨هـ (معجم الأدباء: ج٢: ص١٦١–٢٠٢).

(٣) انظر شرح مقامات الهمذاني: ص١٠–١٧ (المقامة القريضية).

أمتهم، وكتبوا في الموضوعات السياسية، فصوروا الفتن والمنازعات السياسية، وحثوا على الوحدة، وحرضوا على الجهاد وتحدثوا عن كل ما يتصل بالصراع مع الفرنج الغزاة، وقد صوروا كذلك مظاهر الحياة الاجتماعية لدى المجتمعين الإسلامي والفرنجي، وتناولوا في نثرهم أغراضاً أخرى تتصل بذواتهم كالمديح والرثاء والتعريض والذم، والغزل، والشوق والحنين والعتاب والاعتذار والكبر والمشيب والتذمر والوصف وغير ذلك من شؤون حياة الإنسان وأحاسيسه وهمومه.

obeikandl.com